الأزهر فى مفترق الطرق

كان للاقتراح الذى عرضناه على مشيخة الأزهر ووزارة المعارف لحل مشكلة الأزهر رجْع واحد فى مختلف البيئات هو المشايعة على الأصل فيه والاتفاق على الغاية منه . والأصل فيه توحيد التعليم الابتدائى والثانوى بين أبناء الأمة ؛ فلا يكون الفرق بين المتوجهين إلى الدين أو إلى اللغة ، إلا كالفرق بين المتوجهين إلى الحقوق أو إلى الطب . والغاية منه تجديد الأزهر ليساير الزمن ، وتنظيمه ليزامل الجامعة ، فيخرّج للعالم العربى كله رجالا الدين وعلومه أو للغة وفنونها يكون لهم ما للجامعيين من فضيلة المشاركة ومزية الإخصاء . إنما كان الاختلاف فى مدد الدراسة ، أو عدد الكليات ، أو حظ القرآن من المناهج ، أو تصفية الحال القائمة ، وهو اختلاف فى الفروع لا فى الأصل ، وفى الوسائل لا فى الغاية . والذى يعنينا الآن أن يقبل القائمون على أمر الأزهر هذا الاقتراح . فإذا قبلوه أمكن المختصين والمفكرين يومئذ أن يديروا الرأى فيه فيفصلوا المجمل ويكملوا الناقص .

على أن أخوف ما أخافه على هذا الاقتراح أن يطول استناده على المكاتب الرسمية حتى يُنسَى ، أو تحول بعض الحوائل النفسية دون النظر فيه حتى يهمل . والشائع الذى يثبته الواقع أن الرأى أو الأمر إذا لم يدل عليه إلحاح الضرورة ، أو يدفع إليه ضغط الحوادث ، لا يخطره أحد بباله مهما كان أثره فى سياسة الدولة أو خطره على حياة الأمة . والأمر مِن قبل ومن بعد إنما يعنى شباب الأزهر ، فإذا تركوه رهن الطوارق أو جعلوه فى أيدى المقادير، ظلوا كما كانوا : طلابا من غير علم ، أو علماء من غير عمل .

الأزهر يقف الآن فى مفترق الطرق ، ولا يذهب به إلى الأمام إلا طريق واحد ، فإذا ضله رجع إلى الوراء أو خبط فى مجاهل الأرض لا يصيب غرضاً ولا يبلغ غاية . والنتيجة الحتمية لهذه الحال أن ينتقل معنى الأزهر إلى الجامعة ويبقى لفظه المبارك حيث كان . ومن بوادر هذا الانتقال المنوى انضمام دار العلوم إلى جامعة فؤاد الأول؛ فان معنى ذلك الانضمام سلب الاختصاص اللغوى من الأزهر . ولن يجدى على كلية اللغة العربية ما يمدونها اليوم من التسوية بينها وبين دار العلوم فى معهد التربية ؛ فان دار العلوم ستفيد من نفوذ الجامعة ونظمها ما يوسعها ويعمقها حتى تستوعب شؤون العربية وآدابها استيعاباً لا يترك وراءه فضلة .

بقى الاختصاص الدينى للأزهر ، والكلام فى سلبه حديث قديم لا يزال يتردد على أفواه ذوى الرأى كلما فكروا فى توحيد القضاء الأهلى والشرعى والمختلط ؛ فهم يشيرون بأن تتعمق كلية الحقوق فى تدريس الشريعة ليستطيع المتخرجون فيها أن يكونوا قضاة أو محامين فى الدوائر التى ستنشأ للأحوال الشخصية فى كل محكمة أهلية ، شأنهم فى ذلك شأن زملائهم فى الدوائر المدنية والتجارية والجزائية .

أما أصول الدين فقد فكرت كلية الآداب — وأظنها لا تزال تفكر — فى أن تنشىء لها معهداً أو كلية تدرسها على المنهج الجامعى فى التقصى والاستيعاب والموازنة . فإذا أصبح تراث الأزهر نهباً مقسما بين كليات دار العلوم والحقوق والآداب ، وأضفت إلى ذلك أن التعليم الابتدائى والثانوى سيكون كله بالمجان — والمجانية ميزة الأزهر — شككت فى أن يتقدم بعد ذلك اليوم إلى المعاهد الدينية طالب يريد أن يتعلم ليعيش .

الأمر إذن جد ؛ وجده أخطر من أن يعالج بالتهوين أو التسكين أو المطل . وليس من الإخلاص للأزهر أن نقول إن علوم الدين والدنيا فيه ، وأن له من جلالة الأثر فى نفوس المسلمين ما يقيه ويكفيه ؛ فإن « المجاورة » بمعناها الموروث عهد قد انقضى ، والتعبد بدراسة الفقه تقليد قد مضى ؛ وانتقال القيادة العالية اليوم إلى رجال العلم الخالص أمر يبعث على طول التفكير فى إعداد النشء لمجابهة الحياة بأنظمتها المتنوعة وأسلحتها الجديدة . والكلمة الآن للشباب من الأساتذة والطلاب ، فإلى هؤلاء ، وهؤلاء نسوق الحديث . والحزم الجدير بأهل الذكر أن ينضجوا الرأى فى هذا الاقتراح قبل أن يجاوزوا (منعرج اللوى) ، فإنى لأخشى ألا يتبينوا وجه الرشد فيه إلا بعد ذهاب الفرصة وزوال القدرة . وإن فيمن يفاخر بهم الأزهر من أمثال الأساتذة : شلتوت وعرفة والجبالى والغمراوى ودراز وأبى العيون والمراغى والدنى والبهى والصعيدى ، مَن نربأ بهم أن يتركوا جامعتهم القديمة العظيمة فى مهب الأعاصير تزلزل أركانها وتهدد كيانها ، وقصارى ما يملكون لها دعاء لا يصنع معجزة ، أو بكاء لا يدفع مضرّة !

احمد حسن الزيات

بطون جائعة وأموال ضائعة

للأستاذ علي الطنطاوي

ولد لي في هذا الأسبوع مولود جديد ، فأهدى إلى أمه أكثر من عشرين علبة شكولاتة ، من هذه العلب التي جدّت في دمشق ، وصارت (مودة) الوقت ، كل علبة منها لعبة كبيرة بأشكال وألوان ، ما عرفناها قبل الآن ، منها ما هو على صورة طيارة بأجنحتها وذنبها ومحركاتها ودواليبها ، ومنها ما هو على شكل عربة بخيولها ولجمها وسائقها ، كل ذلك مصوّر مشكّل دقيق الصنعة ؛ ومنها ما هو على هيئة سرير له فراش ووسادة من الحرير ، وفي كل منها قبضة من السكر والشيكولاته ، وهي ملفوفة بالورق الصقيل الشفاف ، معقود عليها شريط من خالص القزّ ، لا يقلّ ثمن إحداها عن عشرين ليرة بسورية ... فلما ذهبنا نفتحها تقطع الشريط وتمزّق الورق ... ثم تسلمها منا أولاد الدار ، وأبناء الضيوف ، لأنها لعب خلقت لهم لا للكبار ، فلم تكن إلا أيام حتى تكسرت في أيديهم ، وكيف لا تتكسر وهي مصنوعة من قطع الخشب الملون الملصق بعضه ببعض ، لا تحتمل صدمة ولا نقرة ؟ وعادت حطباً انتهى به الطريق إلى المدفأة ، فاحترقت أربعمائة ليرة كان يمكن أن يشترى بها من (خبز البلدية) عشرون ألف رغيف[1] ، ومن الثياب الخشنة المستعملة (التي توزعها وزارة التموين) أربعمائة ثوب ، ويمكن أن يتزوج بها من الفقراء أربعة رجال ... هذا وأنا رجل معتزل الناس لا أديم مواصلتهم ، ولا أؤدي حقوقهم ، خارج على مواضعاتهم ، ثائر على عاداتهم ، لا أصنع إلا ما أجده نافعاً معقولا ، ولي من جرأة جناني ، ومضاء لساني عاصم من لومهم وتمنيفهم ، وهذا هو المولود الثالث لا الأول ، فكيف تكون الحال لو كنت من الأثرياء الذين يخالطون الناس ، ويقومون بحقوقهم ؟ وكيف لو كان المولود صبياً بكراً ؟

ففكروا كم ننفق من الأموال في أشياء لا يأتي منها خير ، وما في تركها ضرر ، ونحن نشكو الفقر والمرض والجهل ؟

أعرف رجلا تزوج فأهدى إليه يوم زفافه ، من أصدقائه وصديقاته وأقربائه وقريباته ، مائة وست عشرة باقة زهر ، ثمن أدناها خمس ليرات ، وقد يبلغ ثمن أعلاها العشرين ، فحار أولا أين يضعها ، ومن أين يأتي لها بالكئوس والأواني ، ثم بدا له فجملها حول سرير العروسين ، فكان لها منظر رائع خلاب ، ثم مرت الأيام ففسدت وجفت فاستأجر رجلا يحملها ليلقيها في إحدى ... المزابل !

ألف ليرة تلقى على مزبلة ، ونصف الأمة يتضوّر جوعا ! !

وأعرف آخر من التجار أبى له سفهه وتبذيره وكفره بنعم الله إلا أن يوزع السكر على نحو خمسمائة مدعوّ لحضور عقد ولده في علب من الفضة في كل منها صحن من البلور ، لا أدرى من أين جاء بها فما في بلدنا مثلها ، قالوا ، إن ثمن الواحدة منها خمس عشرة ليرة ، فهذه سبعة آلاف وخمسمائة ليرة ، دون باقي المصروفات ، في الفرش والزينة والثياب .. وإن من نساء هؤلاء التجار الفجار الأشرار من تشترى المعطف الواحد بألف ليرة ، وإذا لم تصدقوا فاسألوا تجار الفرو !

والتبذير في أتراح هؤلاء الأغنياء لا يقل عنه في أفراحهم ، فلا تخرج جنازة أحدهم حتى يمشي معها رجال المولوية بقلانسهم التي تشبه علب اللبن ، وثيابهم التي تحكي إذا داروا المخاريط الناقصة التي وصفوها لنا في درس الهندسة أيام المدرسة ، ولا يمشون حتى يقبض شيخهم الرسم المقرر ، خمسمائة ليرة ... وأمام الجنازة الآس والحناء ، وبعدها حفلة (التنزيلة) ، ثم (الصباحية) و (المصرية) وللنساء فيها كسوة خاصة تشترى من أجلها ، فلا يصل الميت إلى القبر حتى ينفق عليه إن كان من الموسرين خمسة آلاف ليرة ، ما أنفق قرش واحد منها في طاعة الله !

وإن حول كل دار من هذه الدور التي تهدر فيها الأموال لساكن فيها ناس مثلنا ، من بني آدم ، من إخواننا في الدين وفي الوطن ، وفي اللسان ، يشتهون عشر معشارها ، أو أقل منه ليشتروا به طعاماً يملأ بطون أولادهم ، وثياباً تستر أجسادهم ، وإن لهؤلاء الناس (لو عرف الأغنياء !) عيونا تنظر كعيوننا ،

(١) ذلك لأن البلدية في دمشق تبيع الخبز للفقراء ، كل كيلو بعشرة قروش ، فالطن منه بمائة ليرة فقط !

وقلوبا تتألم كقلوبنا ، ولهم بنون وبنات هم قطع أكبادهم ، وهم على هلهلة ثيابهم ووساخة أبدانهم أحبّة إليهم أعزة عليهم كعزة أولادنا علينا ، وربما كانوا أزكى من أولادنا نفوساً وأطهر ، وأذكى عقولا وأمهر ، وكانوا أرضى لله وأنفع للوطن منا ، ولكن الفقر عطل قرائحهم ، وكفّ أيديهم ، وكبل أرجلهم .

إن هؤلاء وإن لم يكن فى أعراسهم باقات الزهر ، ولم يكن فى جنائزهم مولوية ولا آس ، ولم يعرفوا طريق المدارس والملاهى ، ولم يزهوا بغالى الثياب ، ولم يتمددوا على أرائك السيارات ، ولم يعرفوا المشيخة التى يأكلون بها الدنيا بالدين ، ولا الزعامة التى يجمعون بها المال بالوطنية ، إنهم هم عماد هذا الوطن ، وهم جمهرة أهله ، وهم يزرعون القمح ويقدمونه إلينا ثم يعيشون على الذرة والشعير ، وهم يبنون لنا القصور ثم يقيمون فى الأكواخ مع البقر والحمير ، وهم يصنعون بأيديهم الشيكولاتة التى لا يذوقونها ، ويحيكون الثياب التى لا يلبسونها ، وهم يسهرون فى الطرقات ليحرسونا ونحن نيام ، وهم يمشون إلى الميادين ليدافعوا عن أوطاننا ونحن آمنون ، وهم قد دفعوا ثمن الاستقلال مهجهم وأرواحهم ، ثم لم يأخذوا من خيراته شيئاً ...

إن هؤلاء هم ركن الوطن وعماده ، وهم أهله وقطانه ، فحرام علينا أن ننساهم ونهملهم ! حرام أن تبقى هذه الأموال ضائعة ، وهذه البطون جائعة ! حرام فى دين الله ، وفى شريعة الانسانية ، وفى قانون الشرف ، فأين المصلحون ، فأين المصلحون ؟ أين رجال الجمعيات ؟ أين أرباب الأقلام ؟

لقد كنت أصفّح (أعداداً) عتيقة من مجلة الهلال ، فوجدت فى (عدد) منها أن فى بلاد السويد جمعية اسمها (جمعية أمناء الأزهار) عملها جمع الأموال التى يشترى بها أهل الميت وأصدقاؤه باقات الزهور التى تحمل مع الجنازة ثم توضع على القبر ، وإنفاقها فى بناء مساكن صحية للعمال والفقراء ، يسكنون فيها بأجر يسير ، وأنها أنشأت (إلى تاريخ ذلك الخبر) نحواً من ألف مسكن .

فلماذا لا يكون فينا رجال مثل رجال هذه الجمعية ، يأخذون المال من هنا ، فيضعونه هناك ، فيصلحون به أخلاق الأمة بانقاذها من داء التبذير والأثرة والمفاخرة بالباطل ، ويدفعون عن أغنيائها حسد فقرائها وبغضاءهم ، ويعودون عليها بالخير لما فى أجسادها وعقولها وصناعاتها وحضارتها إذ ينفقون هذا المال فيما هو أولى به من وجوه الاصلاح ؟

لماذا نأخذ عن الأوربيين السم وندع الترياق ؟

كم ينفق فى الشام ومصر والعراق وسائر بلدان هذا الشرق الإسلامى فى الزفاف وحفلاته ، والمآتم وملحقاته ... والأعياد والمواسم وأيام الولادة والختان ، فيما لا ينفع أحداً ألبتة ، ولا يعود عليه بمائدة ، ولا تناله منه فائدة ؟

حتام تهدر الأموال وتراق الذهب ، اتباعا لعادات قبيحة وتقليداً كتقليد القردة ، وجمهور هذا الشعب يشكو الفقر والمرض والجهل ؟

هل تذهب بشاشة العيد ويمحى رواؤه ، لو اصطلح الناس فيه على تقديم السكر الملبّس الوطنى بدلا من الشيكولاتة وصرفوا فرق الأثمان فى بناء مدرسة أو مستشفى فى كل بلد ؟

هل يبطل أنس العرس ، وتضيع بهجته إذا لم يكن إلا باقتان من الزهر ؟

هل يكتب على العروسين الشقاء الدائم إذا وزعت الحلوى على المدعوين فى قراطيس بدلا من العلب ؟

هل يحرم الميت التقى من نعيم الجنة ، ويضاعف على الشقى العذاب إذا لم يمش فى جنازته رجال الطريقة المولوية التى لا يقول بها عقل ولا نقل ، ولا يقرّها شرع ولا طبع ؟

فإلى متى نضيع أموالا نحن اليوم أحوج إليها من كل يوم مضى لأننا فى عهد تجديد وبنيان ، ولأننا فى أول طريق الاستقلال ؟

فيا أيها الأغنياء لا تغتروا فان النعم لا تدوم ، وإن بعد اليوم غداً ، وإن بعد الحياة موتاً ، وإن بعد الموت لحساباً عسيراً ، أمام رب الأرباب الذى خلقكم وخلق الفقراء من طينة واحدة ، لم يخلقهم من التراب ويخلقكم من الأسمنت المسلح ... ولم يميزكم عنهم إلا بمال أعاركوه ليكون محنة لكم وليطول عليه حسابكم .

ويا أيها المصلحون هذا باب من أوسع أبواب الاصلاح فلجوه بارك الله فيكم إن فعلتم ، وأيدكم .

ويارب منك أنت التوفيق ، فأعط المخلصين مقدرة ، وأعط القادرين إخلاصاً ، فاننا نشكو إليك شكاة عمر : ضعف التقى وفجور القوىّ !

(دمشق) **على الطنطاوى**

على هامش النقد :

همزات الشياطين

مجموعة أقاصيص : عبد الحميد جودة السحار

الأستاذ سيد قطب

كان هذا الكتاب — وهو حلقة من سلسلة لجنة النشر للجامعيين — مفاجأة كاملة لي . فأنا أعرف مؤلفه الشاب ، فأعرف أنه أديب مجتهد ؛ وقد قرأت له ما سمح وقتي المحدود بقراءته من كتبه الكثيرة التي يتجه بها غالباً إلى التاريخ الإسلامي ليعيد عرض وقائعه الجافة في صورة قصصية يحافظ فيها على دقة التاريخ مع سهولة العرض وتشويقه ، وهو عمل نافع مشكور .

وقرأت له قصته الأولى عن : أحمس بطل الاستقلال ، وهي لا تبشر بشيء ! ثم قرأت — على وجه الخصوص — كتابه « في الوظيفة » وأعجبني فيه قدرته على التصوير السريع باللمسات الخاطفة ، وقلت عنه في عدد «الرسالة» بتاريخ ٢٢ يناير ١٩٤٥ :

« إن صاحب هذه الصور الانتقادية موهوب في فن التصوير السريع . ومهما أخذت عليه من عيوب في عمله الفني ، فإنك لن تخطئ اللامح التي يريدها ، والسحنة التي يبغيها ، وهذا وحده يكفي .

« إنه ذو عين لماحة ، تسجل الحركة الحسية ، كما تسجل الحركة النفسية . ثم تغلف اللمحة المرسومة بروح السخرية ، وتمزجها بعنصر الفكاهة ، حتى ليخيل إليك أنه ينظر إلى الدنيا كما ينظر إلى ملهاة كبيرة ؛ تأخذ عينه فيها لمحات التناقض ، وتأخذ حسه فيها مواضع السخرية ، وتأخذ نفسه فيها مواطن الدعابة ... »

ولكن هذا كله شيء ، و« همزات الشياطين » شيء آخر ، ومع أنها موسومة بهذه السمة التي عبرت عنها في تلك الفقرات ، إلا أن الشقة بينها وبين جميع أعمال المؤلف الشاب بعيدة ، فهي وثبة واسعة المدى ، لا بالقياس إلى جميع أعماله ، بل بالقياس إلى أقصى ما كان يتوقعه الناقد لهذه الأعمال !

وقبل أن أبعد في طريق التعميم أخصص ما ذا أعني بأنه وثبة واسعة المدى : تحتوي هذه المجموعة على اثنتي عشرة أقصوصة ، وقد صدرها المؤلف ببحث مختصر مفيد عن الرواية والأقصوصة يؤلف مع الفصل الذي احتوى عليه كتاب « فنون الأدب » عن القصة والمسرحية تأليف (ﻫ . ب تشارلتن) وتعريب الأستاذ زكي نجيب محمود . والفصل الذي كتبه الأستاذ محمود تيمور عن « فن القصص » ... كل ما تحويه المكتبة العربية تقريباً عن هذا الباب الضخم من أبواب الأدب : باب القصة !

من هذه المجموعة أقصوصة طويلة بعنوان «وسوسة الشيطان» تستغرق أكثر من ثلاثين صفحة ، وهي الأقصوصة الرئيسية في المجموعة ... وهذه هي الأقصوصة الفذة البارعة في المجموعة ، وفي أعمال المؤلف كلها منذ أن أخذ يكتب وينشر . أما بقية المجموعة فشيء عادي فيه الخطأ وفيه الصواب ، وبعضها تبدو فيه العجلة التي لا تغتفر لمن يملك أن يخرج مثل هذه الأقصوصة الرئيسية !

وهذه الأقصوصة هي التي فاجأتني مفاجأة تامة ، جعلتني أعاود النظر في كل ما قرأته للمؤلف ، لعلني أكون قد أخطأت في تقديري أول الأمر ، أو لعل بعض كتبه التي لم أكن قرأتها توحي بهذه الوثبة الواسعة !

ثم عدت بعد هذا كله مقتنعاً بأنها وثبة واسعة ، ومفاجأة كاملة ! وقادتني هذه المفاجأة إلى أن أراجع كل ما تحويه مكتبتي من الأقاصيص المؤلفة باللغة العربية — وهي تكاد تشمل كل ما تحويه المكتبة العربية في هذا الباب فوجدت هذه الأقصوصة تقف وحدها متفردة بين هذا الحشد من الأقاصيص .

وأردت أن أتابع الموازنة ، فعمدت إلى ما تحويه مكتبتي من الأقاصيص المترجمة — وهي تكاد تشمل كذلك كل ما نقل إلى اللغة العربية — فوجدت هذه الأقصوصة تقف رافعة الرأس مع أعظم ما أعجبت به في هذه المجموعة ... وترتفع على معظمه ، وتساوي أقله ، وتنحني أمام عدد صغير جداً لا يبلغ عشر أقاصيص من حوالي المائتين !

تصور هذه الأقصوصة تجربة نفسية كاملة للخطيئة . وهي تمثل — مع استقلالها وأصالتها صراع كل « بافنوس » أمام

« تابيس » وكل « عبد الرحمن القس » أمام « سلاّمة » ، بل صراع كل « آدم » أمام فتنة الفاكهة المحرمة . وهى تصور هذا الصراع باللمسة الهينة ، والإيماءة القصيرة ، واللفظة الموحية ، والحركة المعبرة ، وتلم فى الطريق بكل خلجة وكل خاطرة وكل تأثر وكل انفعال ، وتجمع بين السرعة المتحركة فى السياق ، والدقة الكاملة فى رسم الخلجات الخفية ، والوسوسات الخافتة ، وتصور « فلماً » كاملا للصراع النفسى فى موقف خاص !

وذلك كله دون حذلقة ، ودون إبراز للتحليل النفسى الذى يأخذ هيئة التفسير العلمى فيفسد الفن القصصى ، إلا فى موضعين عابرين ألم بهما إلماماً سريعاً لحسن الحظ ، فلم يفسدا السياق ، وإن غضا من قيمته الفنية قليلا .

والصعوبة التى تواجه ناقد القصة أنه لا يملك عرض الجمال الفنى فيها كما يريد ، فالتلخيص عبث وقتل لهذا الجمال ، فهو — على أحسن الأوضاع — يلخص الفكرة ، وماذا تجدى الفكرة إذا لم يستطع تصور طريقة العلاج ؟ وكل وصف لطريقة العلاج يعد تشويهاً بالقياس إلى حقيقة العمل الفنى فى السياق !

ولكننى بعد هذا كله ملزم أن أعرض على القارىء هذا التشويه :

صلاح شاب فى الثلاثين ، متدين ، واثق بنفسه وبإيمانه ، فقد وصل إلى هذه السن ولم يرتكب معصية قط — على الأقل حسبما يعتقد — فهو صاحب حق فى الجنة لا منازعة فيه ، ولأنه لم يعان من قبل أية تجربة نفسية ، فهو يقسو على الخطيئة والخطاة ، ولا تنفسح نفسه لأى عطف عليها أو عليهم ، ولا يحاول أن يستمع لأية معذرة من الظروف والملابسات والاضطرار .

وحين يسمع من الواعظ تحذيره من النفاق وتخويفه للناس من عذاب النار ، لا يحفل ولا يجفل ، فإنه ناج من النار ! وحين يقص على زوجته نبأ طرد عبدالتواب أفندى من عمله لأنه اختلس يعلق على هذه الجريمة بقسوة ، ولا يقبل من زوجه التماس أية معذرة لهذا السارق الأثيم ! وحينما تتقاعس زوجه عن صلاة الفجر لأن حلاوة النوم تقعد بها فى السرير ، يلح عليها حتى تقوم ، لأنه « يود أن يزحزحها عن النار ... » وحينما يعلم أن فتاة يتركها أهلها لتشتغل بالتدريس بعيدة عنهم ، يهم بأن يذهب إليهم ليوبخهم على هـذا الاستهتار ! ويخرج صلاح لعمله بعد الصلاة وقراءة « الحزب » وهو يحلم بالجنة التى دخلها فلم يجد «سميرة» زوجه ، ثم إذا هى تدخلها إكراماً لخاطره ! ... يخرج حيث يعدّ له المؤلف ، أو تعد له الحياة ، الفتنة الأولى مع هذه الدرسة ذاتها :

« أغلق صلاح باب مسكنه خلفه ، وقبل أن يهم بالنزول فى الدرج ، فتح باب المسكن المواجه له ، وخرجت منه فتاة واسعة العينين ، ناهدة الصدر، نحيلة الخصر، وما إن تلاقت عيناه بعينيها حتى غض من بصره ، وتأخر خطوات ليفسح لها الطريق ؛ فمرت من أمامه ، وملأت خياشيمه رائحة عبقة أنعشت نفسه ، ولكنه ظل مطأطىء البصر ، وهبطت الدرج قافزة ، ولم يقدر صلاح على أن يقمع شهوة التطلع طويلا ، فنظر من بين أهدابه المسبلة ، فوقع بصره على ثديين يترجرجان صاعدين هابطين ، فأغمض عينيه ، وتعوذ من الشيطان الرجيم ، وخفت وقع أقدامها وتلاشى ، فوجد نفسه يهبط مسرعاً — وما كان لينزل إلا متمهلا وقوراً ، متخذاً سمة الكهول الوقرين — وسأل نفسه عمادفعه إلى الهبوط السريع ، فرد ذلك إلى جو الربيع الذى أنعشه ، ودب فيه نشاط حبيب إلى النفس ، وبلغ الطريق فلمحها تغذ فى السير ، وتصعد إلى الطوار خفيفة رشيقة ، وما انقطع فى الطريق خطوات ، حتى تعود لتقفز إلى الطوار ثانية كأنها خيال يطير ، لا يبغى المكوث على الأرض ولا يطيق اللصوق بها . ووجد نفسه يغذ فى السير ، ولكن علام الإسراع ، وما هناك حاجة إلى الإسراع ، فمازال فى الوقت متسع؟ وأحس همساً خفيفاً ينبعث من داخله يستفسر : ترى أتغذ فى السير لتلحق بها وتتطلع إليها ؟ وما همس هذا الهاجس فى نفسه حتى تفزع وجفل ، وضيق من خطوه ، وتعوذ وابتدأ فى قراءة المعوذتين ! »

ثم تتابع الحياة دورتها ، ويتابع المؤلف خطوات صلاح . وصراعه مع نفسه ، ومغالطته لها ، وهواجسه وخطراته ، وتناقض أحاسيسه ، وإقدامه وإحجامه ، واقترابه فى كل إقدام وكل إحجام من الهزيمة والاستسلام ؛ فى أسلوب بارع فائق لا نستطيع مجاراته فيه ولا نملك تلخيصه ، حتى نلتقى بالبطل فى موقف الهزيمة الأول : « وانطلقا فى الطريق الهادىء الساكن الممتد على النيل ، وسارا صامتين كأنما استعارا صمتهما من صمت المكان ، واقتربت « بديعة » منه حتى التصق كتفها بكتفه ، واصطدمت يدها بيده أكثر من مرة ، واستقرت يدها فى يده أخيراً ، فراح يضغطها

ضغطاً خفيفاً ، فكان يحس بنشوة لذيذة تسرى فيه ، ما كان يحسها لو أن اليد التي كانت فى يده يد «سميرة» ، واستمر السكون مخيماً عليهما ، وكان سكوناً خارجياً ، ولم تكن نفساهما ساكنتين ، بل كانتا تختلجان بشعور فوار ، فقد كان كل منهما يتمنى أن يضم صاحبه إلى صدره ليطفىء ناره !

« وبلغا مقعداً خشبياً ، فجلسا يحدقان فى النيل برهة ، ثم زحفت « بديعة » على المقعد بخفة حتى التصقت به ، فملأ عبيرها الشذيّ أنفه ، وحرك نفسه ، فتاق إلى أن يضمها إليه ، ويطوقها بذراعيه ، ويعطر وجهها قبلات ، ولكنه قمع شهوته ، وقاوم رغبته ، ورمى بنظره إلى النيل ، وجعل يرقب موجاته المتكسرة محاولا أن يتشاغل عن هواتف نفسه ، ولكن رغبته خنقته وسيطرت عليه ، فارتد بصره إليها ، وراح يتطلع إليها فى وله واشتهاء . . والتقت العيون ، فترجمت عما تخفى الصدور ، فمالت « بديعة » وأسندت ظهرها إلى صدره ، فخفق قلبه ، وارتفع نبضه ، وسرى الدم حاراً فى بدنه ، حتى أحس به يكاد يشوى وجهه ، وانبهرت أنفاسه قليلا ، وضاقت حدقتا عينيه قليلا ، واضطرب كثيراً ، وأحس شعرها الأسود السبط الجميل الذى تمنى يوم جلست أمامه فى السينما أن يمر بيده عليه ، يلمس خده ، فسرت رعدة فى جسمه ، وارتفعت يده دون أن يتكلف ذلك ، وراحت تمر على شعرها فى حنان ، فرفعت عينيها المتكسرتين إليه وهى مستلقية على صدره ، واستدارت قليلا كأنما استدارت للقبل ... ورنت إليه فى دلال ، وزمت شفتيها تدعوه فى خبث إلى اللثم والعناق ... فلم يستطع أن يقاوم تلك الفتنة المرتمية فى أحضانه ، ولا نداء العينين الواسعتين الساحرتين ، ولا الشفتين المزمومتين المرتجفتين قليلا ، المغريتين كثيراً ! »

وهكذا يمضى المؤلف بصلاح المسكين فى سياق مصور دقيق على هذا الطراز حتى يصل به إلى الدار : « وتذكر فى الطريق دعاء ما كان يجرى له ببال قبل اليوم ، ولم يتحرك به لسانه أبداً ، فأخذ يردده فى نفسه فى حرارة يحس نارها تصهر صدره ، ولأول مرة يحس جلال ذلك الدعاء ، واستمر يردده وهو يصعد الدرج : « اللهم إنى أعوذ بك من شر نفسى ... اللهم إنى أعوذ بك من شر نفسى » !

« ودق الباب ففتحته زوجه ، فدخل وأغلقه خلفه ، ثم طوقها بذراعيه ، وراح يقبلها فى لهفة وهو يغمغم : « سميرة ... سميرة ؟ » كأنما كان فى سفر طويل عاد منه ، وخطر دائم يهدد حياته ، وأحس كأنه يود أن يفضى لها بكل شىء ، وأن يقص عليها قصة ضعفه ، ولكنه تريث ، وتخلصت منه فى رفق ، وسألته فى ارتياب : ما بك الليلة ؟ فقال : لا أدرى ، إنى إليك مشتاق كأنى لم أرك منذ سنين ! فقالت : أأعد العشاء ؟ فقال : انتظرى حتى أصلى العشاء !

« ودخل حجرته ، وأخذ يخلع ملابسه ، ولم ترحه نفسه الهتاجة ، بل راحت تخزه ، فسمع صوتاً يهتف به من أغوار نفسه : « يا لك من منافق ! كيف سمحت لنفسك أن تضع شفتيك الآثمتين على شفتيها الطاهرتين ؟ وكيف رضيت أن تلف ذراعيك اللوثتين بخصرها ؟ وأن تلصق صدرك الخبيث بصدرها ؟ يا لعارك ! »

ثم يعتزم التوبة والتكفير بألا يلقى بديعة مرة أخرى . ويصر على ذلك إصراراً ونفسه تهتف به إليها هتافاً ، ويصمد فى الظاهر وهو يقترب من الخطيئة الكبرى ... ثم تقع هذه الخطيئة فى أشد لحظاته إصراراً على ألا يلمح « بديعة » أو يراها ! . ثم يصبح الصباح ! ... « واستمر ضميره يخزه وخزاً شديداً ، وهو يتلوى من العذاب ، وضاق صدره فترقرق الدمع فى عينيه فلم يستطع حبسه ، فجرى على خديه ، واستمر فى عذاب حتى ارتفع صوت المؤذن يؤذن بالفجر . فأحس كأنه نار تصب فى أذنيه . فوضع إصبعيه فى أذنيه ليصمهما عن سماع الأذان الذى يزيد من أشجانه ، ولكن صوت المؤذن كان يقرع سمعه فكأنه شواظ من نار سددت إلى قلبه فحرقته حرقا ، وارتفعت النار إلى صدره فأضنته ، وأحس «سميرة» تنهض من فراشها ، فأحس عرق الخجل يتصبب منه حتى يغمره ، واقتربت من سريره فود أن تبتلعه الأرض قبل أن تمسه ، ولكن يد « سميرة » لمست كتفه فى رفق ، وهمست فى حنان : — صلاح ... صلاح ... انهض قد أذن المؤذن ...

« فهم بأن يصيح فيها أن تبتعد عنه ، وألا تلمسه ، ولكن صوته انحبس ، ولم يجد مخرجا . فعادت تهزه وتهتف : — صلاح قم . الصلاة خير من النوم . واقتربت بوجهها من وجهه ، فلفحت

مقابلات بين أقوال جحا

وأقوال الشعراء والكتاب

للأستاذ كامل كيلاني

(بقية المنشور فى العدد ٦٦٦)

٥ — صغار الأشياء

يقول شيخنا المعرى :

العمل — وإن قل — يستكثر ، إذا اتصل ودام ، لو نطقت كل يوم لفظة سوء ، لاسودت صحيفتك فى رأس العام .

ولو كسبت كل يوم حسنة ، عُدِدْتَ — بعد زمن — من الأبرار .

إن اليوم ائتلف من الساع ، والشهر اجتمع من الأيام ، والسنة من الشهور ، والعمر يستكمل بالسنين .

الرجل مع الرجل عصبة ، والشعرة مع الشعرة ذؤابة (وهى الضفيرة المرسلة من الشعر) والحجر فوق الحجر جدار ، والنخلة إلى النخلة حائش (جماعة من النخل) .

ويقول بعض شعراء أوربة .

« قطرات الماء منها محيط وصغار الحصى تكوّن أرضا
ودقيقاتنا تؤلف جيـــلا بعد جيـــل فى إثره يتقفى
وقليـل الحنان والحب مما يجعل الأرض جنة الخلد خفضاً »

فكيف يعبر صاحبنا عن هذه المعانى بأسلوبه الجحوى الفاتن :

٦ — برميل العسل

يقول :

« كان والينا الجديد — فيما سمعت وسمع غيرى من الناس — مما ترامى إلينا من أخباره يحب العسل حباً شديداً ، ويؤثره على غيره من ألوان الحلوى ولذائذ الفاكهة جميعاً .

وقد احتشدنا لاستقباله وتأهبنا للاحتفاء بمقدمه بعد أن اجتمع رأينا على أن نهدى إليه برميلا كبيراً نملأه بأحب الطعام إليه وهو العسل .

وتعاهدنا على أن يسهم كل واحد منا فى تلك الهدية بأيسر نصيب . فيلقى فى ذلك البرميل الكبير بمقدار فنجان صغير .

وخطر ببالى — حينئذ — خاطر عجيب فقد سوَّلت لى نفسى أن أهرب من أداء هذا الواجب اليسير الذى لا يكلفنى شيئاً .

وقلت فى نفسى ، والنفس أمارة بالسوء :

إن مئات غيرى من الناس ، سيقومون بأداء هذا الواجب عنى . ولن تقدم هديتى شيئاً ولن تؤخر . فلو ملأت الفنجان ماء أو عسلا لما نقصت الهدية شيئاً ولا زادت ، ولما شعر أحد بتقصيرى .

ولكن شد مادهشت حين فتح الوالى برميل العسل أمامنا . فوجده مملوءاً ماء كله . وليس فيه قطرة واحدة من العسل .

لعلكما أدركتما السر فى ذلك — يا ولدىّ — فإن تلك الفكرة الخاطئة التى مرت على بالى ودفعتنى إليها الأثرة والأنانية

دموعه تجرى على خده . فهمست فى فزع : — صلاح . مابك ؟ أتبكى ؟ ... قم يا حبيبى . قال : دعينى . قالت ما بك يا حبيبى ؟ قال : رأيت رؤيا مفزعة . رأيت نفسى أطرد من الجنة » .

ولا تنتهى الأقصوصة حتى يكون هذا الواثق فى نفسه وقوة إيمانه ، المستعز بمكانه فى الجنة ، القاسى على الضعف والخطيئة ... معذبا مولها ، لا تهب عليه نسائم الرحمة إلا من الإقرار بالضعف والخطيئة والرجوع إلى التواب الغفار عن طريق الخطأ والاستغفار !

« ونهض صلاح ليغتسل من إثمه ، وانطلق حزيناً كئيباً يحتقر نفسه ، ويعجب لضعفه ، وسمع صوتاً آتياً من أغوار نفسه كأنه همس ينبعث من مكان سحيق ، ولكنه بلغ أذنيه واضحاً قوياً ، وانساب فيها عذباً ندياً :

« كل ابن آدم خطّاء . وخير الخطائين التوابون »

فتمتم والدموع تخضب وجهه : « اللهم إنى أستغفرك وأتوب إليك »

هذا عمل فنى رائع لا تصوره تلك المقتطفات بل تشوهه !

وإن المؤلف الشاب ليستطيع أن يلقى بكل أعماله إلى البحر ، ثم يقف بهذا العمل الفنى وحده . فإذا قدر له أن يخرج عشر أقاصيص فقط من هذا الطراز ، فليكن على ثقة أنه سيسلك فى سجل العظماء من رجال الفنون ! ولكن هذا عمل عسير !!!

سيد قطب

إلى إنفاذها قد مرت على بال كل واحد من أصحابي المثين الذين اجتمعوا لتكريم الوالي .

وهكذا كانت هديتنا إليه برميل ماء لا برميل عسل . وقد تركت الهدية في نفس الوالي بعد ذلك أسوأ الأثر ، وكانت سيرته معنا كما كانت سيرتنا معه من أقبح السير .

وكان هذا أبلغ درس وعيته في شبابي ، وأدركت مغزاه ، فلم أنسه طول حياتي .

٧ — دولاب الزمن

يتمثل بعض الشعراء ، فيما يتمثلون من أخيلتهم البارعة ؟ أن الزمن بحر ، ونحن راكبوه على سفائن — من أعمارنا — لا تلبث أن تحطمها الأمواج المصطخبة الثائرة . وفي هذا يقول شيخ المعرة :

« ركبنا على الأعمار والدهر لجة   فاصبرت للموج تلك السفائن »

ثم يتمثل شاعر آخر أن سفينة الحياة تخيل لرائيها أنها واقفة على حين يجري بها الزمان ، وفي هذا يقول (مهيار الديلمي) :

وإنا لفي الدنيا كركب سفينة   نُظَنّ وقوفاً والزمان بنا يجري »

ثم يتمنى شاعر ثالث لو استطاع أن يلقي بمراسي هذه السفينة في ذلكم البحر الزمني ، لتقف ولو يوما واحداً ، فيقول الشاعر المبدع « لامرتين » في قصيدته البحيرة وهو من المعاني التي افتن الشعراء فيها وأبدعوا في صوغها وتصورها إبداعا :

«هكذا وأبداً ، نظل مدفوعين إلى سواحل جديدة من الحياة في ليل الأبدية المظلم ، لا نرجع ولا نعود . فهل يتاح لنا أن نلقي مراسي سفينتنا فوق أوقيانوس الزمن ؟ وهل يقر قرارنا يوما واحدا ؟ »

وقد أبدع البحتري — قبل لامرتين — في هذا المعنى أي إبداع حين قال :

« ليت أن الأيام قام عليها   من إذا ما مضى زمان يعيده »

ومن قبلهما التفت « امرؤ القيس » إلى طول الليل التفاتة فريدة ، فتمثله خياله المبدع الوثاب ، كأنه واقف لا يتحرك ، بعد أن شدت نجومه — إلى جبل يذبل — بأوثق الأسباب ، وأمتن الحبال لتمنع الليل عن الحركة وتعوقه عن الانتقال . فقال في معلقته الخالدة :

« فيالك من ليل كأن نجومه   بكل مغار الفتل شدت بيذبل »

ثم جاء المعري فمثل لنا العاشق الولهان يود لو استطاع أن يديم ظلام الليل فلا ينتهي ، ويتمنى لو يُزيدُ في سواده سوادَ قلبه وسواد عينه ليطيله قليلا . فقال :

« يود أن ظلام الليل دام له   وزيد فيه سواد القلب والبصر »

وقال صَرَّدر :

« يا ليت عمر الفتى يُمَدُّ له   ما امتدّ منه الرجاء والأمل »

وقال :

«فليت الفتى كالبدر جدد عمره   يعود هلالا كلما فني الشهر »

ثم جاء « ابن الفارض » فقال :

« يا ليل طل ، يا نوم زل   يا صبح قف : لا تطلع »

ولو شئنا أن نتقصى ما قاله الشعراء في هذا الباب لامتد بنا نفس القول دون أن نبلغ من ذلكم مداه . ولكن حسبنا أن نشير إلى قول الشريف الرضي :

« يا ليلة كاد من تقاصرها   يعثر فيها العشاء بالسحر »

وقوله :

« ردوا عليّ لياليّ التي سلفت   لم أنسهن ولا بالعيش من قدم »

وقول مالك بن الريب :

« فليت الغضا لم يقطع الركب عرضه
وليت الغضا ماشى الركاب لياليا »

وقول الشريف أيضاً :

« ولو قال لي الغادون ما أنت مشتهٍ
غداة جزعنا الرمل : قلت أعود » .

يحسبنا هذا القدر على وجازته . وقديماً قالوا :

« حسبك من القلادة ما أحاط العنق » .

فلننتقل إلى الدعابة الجحوية لنرى كيف تعبر في سذاجة نادرة عن هذه الأعماق والدقائق المنوية ، التي صاغها المبدعون في دورة الفلك ودولاب الزمن :

يُسأل جحا وهو صغير :

« أيكما أكبر : أنت أم أخوك ؟ » .

فيقول :

« أخي يكبرني بعام واحد ، فاذا جاء العام القابل تساوينا في العمر » .

ويُسأل وهو كبير :

« كم سنك يا جحا ؟ » .

فيقول : « أربعون عاما ! » .

فيقول له بعض سامعيه :

« ألم تقل لنا ذلك منذ سبعة أعوام ؟ » .

فيجيب جحا في غير تلعثم ولا ارتباك :

« وهل يغير الحرُّ كلامه ؟ » .

* * *

فأنت ترى في القصة الأولى : تدفعه الرغبة الفكرة ، أو التفكير الراغب (Wishful thinkngi) إلى أن يتمثل : أن دولاب الزمن قد وقف بأخيه عاما ليدركه جحا .

فاذا كبر : دفعته الرغبة أن يتمثل قدرته على وقف دورة الفلك عند سن الأربعين لأنه لا يريد أن يتخطى هذه السن أبدا . وحسبه أن يعيش على هذه الأمنية ما دام في تخيلها سعادته .

ورحم الله الشاعر الذي يقول :

« مُنى إن تكن حقاً تكن أحسن المنى ... وإلا فقد عشنا بها زمناً رغداً »

٨ — المرأة والسن

ومن بديع لفتاته حين رأى صديقاً له مكتئباً حزيناً ، فسأله عما يحزنه ، فقال :

« لقد نشب بين زوجي وأختها عراك عنيف لا أدرى كيف ينتهي ، وقد جئت لأستعين بك على فض ذلك النزاع بحكمتك وكياستك » .

فسأله جحا : «أتراهما تشاجرتا لاختلافهما على عمريهما ؟ »

فقال له : « كلا يا صاحبي لم يدر لهما هذا المعنى على بال » .

فقال جحا : « عد إلى بيتك مطمئناً فلن يطول شجارهما يا صاحبي » .

٩ — الإسراف والاعتدال

يقول الشاعر :

« يتمنى المرء في الصيف الشتا ... فاذا جاء الشتا أنكرهُ

ليس يَرضَى المرء حالا واحدا ... قتل الإنسان ما أكفرهُ »

ويستمع صاحبنا جحا إلى رجل يشكو زمهرير الشتاء ويلعن برده القارس ، وينبرى للشاكي أحد المتحذلقين فيمنفه على شكواه ، ويقول له : « لقد كنت تشكو في الصيف الماضي وقدة الحر ، وعنف القيظ ، فمالك تبرم بالشتاء إذا جاء ؟

فيعجز الشاكي وأصحابه عن الإجابة ، ويلتفت جحا التفاتة رائعة . فيقول :

« لقد طالما شكا الناس زمهرير الشتاء ، وقيظ الصيف ، فهل رأيت أحداً يشكو : اعتدال الربيع ؟ » .

وكأنما أوحى بهذه الإجابة البارعة إلى ابن الوردى قوله في ذم الإسراف والغلو :

بين تبـذير وبخل رتبة ... وكلا هذين ، إن زاد قتل

١٠ — مناجاة النفس

ويقولون : إنهم سمعوا جحا يتحدث في غرفته وليس معه أحد ، وكأنما يحدث شخصاً آخر ؛ فلما فتحوا باب الغرفة ليتعرفوا جلية الأمر وجدوه يحدث نفسه . فسألوه : « كيف تحدث نفسك يا جحا ؟ » .

فقال : « لقد برمت بغباء الناس وضيق عقولهم ، وعجزهم عن فهم الدقائق التي تقصر أفهامهم عن بلوغها . واشتقت إلى محادثة بارع فطن ذكي يفهمني وأفهمه ، فلم أجد غير نفسي ، فرحت أناجيها وأفضى إليها بدخلتي » .

ألا تذكرنا هذه القصة بقول الشاعر الأندلسي المبدع « ابن حمديس » .

« سواى من يعتد من أنسه ... ما نال من حظ ومن كأسه

وحق مثلي أن يرى خاليا ... بنفسه يبحث عن نفسه »

* * *

وقد نسبت هذه القصة إلى الساحر المبدع « برنارد شو » ، كما نسبت إلى جحا من قبله . ولعلها من مختلقات الرواة ؛ فاذا صحت نسبتها إليه أيضاً فهي من توارد الخواطر ، وما أكثر ما تلتقي العقول الكبيرة كما التقت عقول جحا وبرنارد شو وابن خفاجة الأندلسي .

كامل كيلاني

الأدب في سير أعلامه :

ملتن ...

[القيثارة الخالدة التي غنت أروع
أناشيد الجمال والحرية والخيال ...]

للأستاذ محمود الخفيف

— ٩ —



أشعاره في هورتون :

وكانت قصيدة ملتن الثالثة في هورتون هي الغنائية المسرحية أركادس، وهي في الواقع نبذة من غنائية مسرحية فهي لا تعدو مائتي سطر، ويمكن أن نعدها قصيدة مدح لولا هذه الصورة المسرحية التي وضعها فيها الشاعر.

نظم ملتن هذه الغنائية الصغيرة سنة ١٦٣٣ تكريما لسيدة عظيمة علت بها السن هي كونتس سلسبري؛ وقد مثلها بين يديها أحفادها وهم أبناء إيرل بردجووتر وابنته؛ ووضع ألحانها رجل من أشهر ملحني العصر جميعا هو لو وكان صديقا حميما لملتن، ما ذهب ملتن إلى لندن مرة إلا قضى عنده ساعات يستمتع بموسيقاه، وكان ملتن يقدره حق قدره ويعجب بألحانه إعجابه هو بشعر صديقه الشاعر. وتبدأ المسرحية بأغنية صغيرة مدح للكونتس يتقدم بها منشدين بين يديها أحفادها من بنين وبنات في ملابس ريفية، ويبلغ ملتن في هذه الأغنية أعلى درجات الإجادة والأمتاع؛ فثمة ألفاظ حلوة ولحن بديع ومعان جليلة تكافىء مقام السيدة التي يمتدحها. وبينما يتقدم المنشدون والمنشدات بين يدي السيدة يظهر جني الغابة فيتجه نحوهم ويوجه إليهم الحديث ممتدحا السيدة في شعر من النسق العالي بالغ الروعة والسحر؛ ويختتم الجني حديثه بأغنيتين إحداهما موجهة إليهم، والأخرى موجهة للقرويين والرعاة جميعا، وفيهما يثني الجني على السيدة ويتغنى بمجدها وأنعمها.

* * *

وفي سنة ١٦٣٤ نظم ملتن قصيدته الرابعة في هورتون فقد طلب لو إلى صديقه الشاعر نظم غنائية مسرحية أخرى لتكريم إيرل بردجووتر بمناسبة ولايته المنصب الرفيع الذي كان قد رقي إليه منذ ثلاث سنوات وهو منصب الرئيس اللورد لمجلس مقاطعة ويلز وذهابه ليقيم في قلعة لادلو. ولقد أقيمت الحفلات للورد في جهات كثيرة وبالغ عشيرته وأصدقاؤه في تكريمه، ومن هؤلاء لو الملحن النابغة، وكان لو أستاذ الموسيقى لابني اللورد وابنته، ولم يقتصر على تلحين الأغاني في هذه الغنائية المسرحية، بل اشترك كذلك في تمثيلها ...

وكانت أليس ابنة اللورد وهي فتاة ناهد في نحو الخامسة عشرة من عمرها، وأخواها وهما دونها في العمر أهم الشخصيات في تمثيل هذه الغنائية.

تخيل الشاعر سيدة تاهت في مسالك الغابة وأحراجها وهي في طريقها وأخويها إلى قلعة أبيها، وظلت تبحث عبثا عن أخويها وظلا يبحثان عنها في غير جدوى، وتمثل لها كومس الجني الشهواني الساحر في زي أحد القرويين، وتظاهر أنه يهديها السبيل، ثم إذا هو غوي مبين أخذ يحتال عليها ويراودها عن نفسها فاستعصمت، ولكنه دأب في غوايته حتى حضر أخواها فتغلبا على كومس وقبيله إلا أنهما ألفيا أختهما لا تستطيع التحرك بما صنع بها سحر كومس فأخذتهما الحيرة، ولم يخرجها من ورطتها إلا سابرينا إحدى العذارى الخرافية التي أبطلت سحر كومس وهي من خلق ملتن؛ وتنطلق الفتاة وأخواها بعد ذلك

إلى القلعة ، وكان يحمى الفتاة ويعصمها من الزلل من البداية حتى النهاية من عالم الأرواح روح ساهر عليها يتنكر فى زى أحد الرعاة ، وكان لهذا الروح فضل عظيم فى القضاء على كومسى ، وبعد انتصاره انطلق إلى عالمه الذى هبط منه .

هذا هو موضوع الغنائية ، ولقد تأثر ملتن فى بناء هذا الموضوع على هذه الصورة بما قر فى خاطره من قراءاته المتنوعة الواسعة ، فالشبه عظيم بين غنائيته فى بنائها وبين « قصة الزوجات العجائز » لبيل ، وملخص هذه القصة أن سيدة حملت من تسالى إلى بريتن بسحر ساحر لعين يسمى ساكربنت تعلم من أمه ميرو وهى ساحرة شهيرة كيف يغير صور الناس ، وتبقى السيدة فى بريتن مسحورة عن نفسها تنسى ذاتها كما تنسى أصدقاءها ، ويبحث عنها إخوتها فيرد عليهم صدى يتبعونه حتى يقعوا فى يد ساكربنت فيسحرهم ويسخرهم فى أداء أعمال حقيرة . وينجى السيدة حبيبها بعد ذلك وقد اطلع على سر ساكربنت على يد عفريت رجل فقير كان قد صاحبه . ويموت الساحر ولكن تبقى السيدة مسحورة ولن يفك السحر عنها حتى يحطم وعاء زجاجى له بيد أنثى لا هى عذراء ولا زوجة ولا أرملة ، وينطفىء بتحطيمه ضوء كان يلقيه ، وبعد لأى توجد الأنثى المطلوبة فيحطم الوعاء وينطفىء الضوء ، وتنطلق السيدة المسحورة وغيرها من فرائس الساحر ...

وثمة شبه كذلك بين غنائية ملتن ومسرحية جون فلتشر « الراعية الوفية » وهى مسرحية ريفية كتبها صاحبها سنة ١٦١٠ وأعاد نشرها سنة ١٦٣٤ وهى السنة التى كتب فيها ملتن غنائيته. ومن هذه المسرحية أخذ ملتن فكرة انتصار العفة فى النهاية كما أخذ فكرة الروح الحارس الذى يحمى العذراء . فى المسرحية سيدة كانت عفتها فى خطر لولا هذا الروح الحامى . وفى مسرحية فلتشر يبرز إله النهر فينجى العذراء كما تنجى سابرينا عذراء غنائية ملتن . ويستعمل فى كومسى نبات لشفاء الجروح كما يستعمل نبات غيره فى الراعية الوفية ، وفوق ذلك تنطوى غنائية ملتن على فقرات لها أشباه فى المعنى والفكرة فى مسرحية فلتشر .

أما شخصية كومسى الذى سميت باسمه الغنائية ، فهى من ابتكار ملتن فقد جعل لكومسى أبوين من الميثولوجيا ، فأما أبوه فهو باخوس إله الخمر ، وأما أمه فهى سيرس الساحرة التى كانت تحيل من يشرب سائلا لها إلى حيوان ، وعلى ذلك فقد جمع كومسى بين المرح والعربدة ورثهما عن أبيه ، وبين السحر ورثه عن أمه ، وامتاز كومسى عن أمه بأنه لا يحيل أشكال الناس إلى حيوانات فحسب ، ولكنه يغير عقولهم حسبما يشاء فيوحى إليهم ما فى نفسه من شهوة وفسوق .

وتمج غنائية ملتن بتلميحات مأخوذة كلها من ميثولوجيا الأغريق والرومان ، كما أن فيها ألفاظا وعبارات وصفات تشبه نظائرها فى شعر من سبقه من شعراء قومه ، وعلى الأخص سبنسر وشكسبير .

أما فلسفة ملتن فى الغنائية ، فمشتقة من فلسفة أفلاطون وآرائه فى الفضيلة . وقد تعمق ملتن دراسة هذه الفلسفة وأحبها حباً شديداً ، إذ صادفت هوى فى نفسه ، وقد كانت نفسه حريصة على العفة كوسيلة إلى السمو الروحى والبيانى .

ولكن على الرغم من هذا كله نجد الغنائية فى جملتها وعليها طابع ملتن ، فهى ملتنية الروح واللفظ والأسلوب والموسيقى والفلسفة ، وفيها سمات عبقريته وشواهد قوته ، بحيث لا يمكن ردها إلا إليه كما ترد آثار فحول الشعراء إليهم بمجرد سماعها ، ولو لم يذكر أول الأمر أنها لهم ، فى أماراتها وخصائصها وروحها ما يشير إليهم إشارة تغنى عن ذكر الإسم ، وتلك ميزة يختص بها هؤلاء الفحول ، فالشاعر منهم أصدق أصالة وأبرز فناً من أن يضيع فى غيره ، وتلك الميزة هى مقياس فحولته ، إذ لولاها لكان كغيره من سائر الناس ، ومن هؤلاء الفحول الأفذاذ « ملتن » صاحب هذه الغنائية يومئذ وصاحب الآية الكبرى يوم يعلى الفردوس المفقود ...

مثلت أليس ابنة اللورد السيدة التى ضلت فى الغابة ، ومثل أخواها دور الأخوين ، أما اللحن (لو) فقد أخذ دور الروح الحارس ، ومثل أحد الشبان دور كومسى ، كما مثلت إحدى الفتيات دور سابرينا ، وهؤلاء هم أشخاص الغنائية جميعاً ، فهى كما ترى نوع من المسرحيات القليلة الحوادث والأشخاص تعنى بالموسيقى والشعر وتقوم فيها الأرواح والأشباح إلى جانب الناس .

تبدأ الغنائية بمنظر يمثل غابة وحشية ، ثم يظهر على المسرح

أو يهبط عليه الروح الحارس ، فيتكلم فى شعر رقيق بليغ عن موطنه ورهطه فى عالم السماوات ، ويشير إلى دنيا الناس وما فيها من آثام بقوله : «هذه البقعة المظلمة التى يسميها الناس الأرض» ويبنى على الناس حياتهم المضطربة وغفلتهم عما تهيئه لهم الفضيلة بعد ارتحالهم من عالم الفناء ، ولكنه يغتبط بأن بين الناس قلة يطمحون إلى وضع أيديهم على ذلك المفتاح الذهبى الذى يفتح لهم قصر الخلود ؛ ولهذه القلة مهبطه ومن أجلها رسالته ، ثم يشير إلى اللورد بأنه من أنصاف الآلهة الذين يحكمون فى الجزر مستمدين سلطانهم من نبتيون إله الماء ، ويمتدح خصاله ويتحدث عن ابنيه وبنته وعن مسيرهم فى الغابة ، وأنه أرسل من قبل جوف كبير الآلهة ليحميهم فى ظلمات الغابة ، ومم يحميهم ؟ هكذا يتساءل ليسترعى الأسماع ، ثم يقول : إنه سوف يقص ما لم يرد مثله فى شعر ولا فى قصص ، فى كوخ كان ذلك أو فى قصر . ثم يذكر فى إثر ذلك كومسى ومولده وما ورثه عن أبيه وعن أمه ، وما هو فى مقدوره من السحر ، فيصور للأذهان صورة عجيبة حقاً ، ويشوقها إلى ما عسى أن يقع على يد كومسى ، ولكن جوف يكف شره عمن يرعاهم من الناس ، ولذلك أرسل هذا الروح فى مثل لمحة النجم ليحمى هؤلاء المدلجين ، فليتنكر فى زى شخص يعرفونه ، وليكن هذا الشخص هو أستاذ الموسيقى ، وهنا يثنى الروح أعظم الثناء على فنه ووفائه ؛ ثم يرهف سمعه ويقول : إنه يسمع خطوات بغيضة تقترب ، فعليه أن يختفى ؛ وبهذه الوسيلة يعبر ملتن عما يريد أن يقول عن اللورد وعن صديقه الموسيقى على لسان ذلك الروح فى فيض من الشعر المرسل الرصين الرائع الذى يملك الأنفس عذوبة جرس وحلاوة معنى ، والخيال الساحر البارع الذى يذهل السامعين عن أنفسهم وعن عالمهم برهة . .

ويظهر كومسى فى المنظر الثانى وفى إحدى يديه عصاه السحرية وفى الأخرى زجاجته ، وفى إثره يمشى قبيله تمثل رؤوسهم أنماطاً من الوحوش ، ولكن أجسامهم آدمية ، ومنهم الذكور ومنهم الأناث ، ويلبسون جميعاً ملابس براقة ، ويقبلون فى زياط وجلبة يتواثبون ويتراقصون وفى أيديهم المشاعل ، وتسكن ضوضاؤهم بعد برهة ، ويتكلم كومسى وقد سكتوا ، فيصف مولد الليل ، ويجرى الشاعر على لسانه وصفاً رائعاً لمغرب الشمس فى شعر مقفى جميل اللحن ، فالنجم الذى يوحى إلى الرعاة موعد العودة بقطعانهم يتخذ سمته فى السماء ، وعجلة النهار الذهبية تبرد فى ماء الأطلنطى ، والشمس على الأفق الغربى تطلق آخر شعاع لها صوب القبة قد نشاها الطَّفَل ، ثم تهبط متخذة طريقها إلى غرفتها الشرقية فى الجهة الأخرى ...

ويدعو كومسى قبيله بعد هذا الوصف إلى اللعب واللهو تحت أستار الظلام ، ويصف ما عسى أن يجرى فى الليل من صور المرح ، ويشير إلى الناس وكيف يغطون فى نومهم ومعهم مواعظهم ونظراتهم وحكمهم فهم من الطين ؛ ولكن كومسى وقبيله من النار فهم لذلك أكثر خفة وانطلاقا ، والليل كفيل أن يغطى لهوهم ولعبهم ، ومادام الصباح الذى يكشف نوره العيوب لا يزال بعيداً ، فهلم إلى اللهو والزياط والمجون ؛ ويدعو كومسى أتباعه أن يمسك كل منهم بيد صاحبه ثم ليضربوا الأرض بأقدامهم راقصين ... ويأخذ هؤلاء فى رقصهم لاهين عابثين ، ولكن كومسى لا يلبث أن يدعوهم إلى السكون ثم الاختفاء فإنه يسمع أقداما قريبة وينبئه سحره أنها عذراء ضلت فى متاهات الغابة ، ويتحدث فرحا عما يعده لها من السحر ويصف كيف يحتال عليها وكيف يتنكر لها فى زى فلاح تأخر به سعيه من أجل عيشه عن العودة إلى كنه حتى هذه الساعة ، ثم يعلن إلى قبيله أنه سوف يسمع ماذا تقول العذراء .

وتتقدم السيدة فتظهر على المسرح ، وتحدث نفسها قائلة إنها سمعت لتوها جلبة وأصوات مرح وغناء ومزمارا كمزامير الرعاة والفلاحين ، وتقول إنها توجس خيفة من عبث هؤلاء وتوقحهم ، ولكن ماذا عساها تصنع ، وإلى أى طريق فى متاهات الغابة تلوى وجهها عما تحذر ؛ وتذكر أخويها قائلة بأنهما تركاها لتستريح وقد بلغ بها الجهد وذهبا ليحضرا لها شيئاً يمسك صلبها من ثمار الغابة وماتظن أنهما قد ضلا ، وقد سرقهما الظلام منها . ثم تلتفت حولها وتقول إنها تظن أن هذا هو المكان الذى كان ينبعث منه الغناء والمرح ، ولكنها لا تجد إلا الظلام وحده ، وتهجس فى نفسها المخاوف فكأنها تسمع أصوات رجال ينادونها وترى أشباحا تهتف بها وتتخيل ألسنة هوائية تنطلق بأسماء رجال ، وهذه أشياء كفيلة بأن تلقى الخوف فى النفوس ولكنها لاتزعزع

فلسطينيات :

قصـــة فتاة ... !

للأستاذ نجاتي صدقي

قيل لي إن في الدار فتاة تحمل رسالة إلي ، وتود مقابلتي ... فتوجهت إليها ، فوجدت نفسي أمام فتاة في العشرين من عمرها ، مكتنزة الجسم ، « مبتسمة » العينين ، وشعرها أسود كثيف ، ووجهها لا يحمل المساحيق ، فهو بطبيعته ناصع البياض ، وخداها ورديَّان يعلوهما القليل من البُثُر ، المعروف بين الناس بـ (حَبّ الصِّبا) ، وقد عصبت رأسها بمنديل حريري ملوَّن ، ولبست ثوبا قصيراً ، وكانت ساقاها عاريتين ، وتحتذي حذاء صيفياً .

دعوت الفتاة إلى غرفة ربة البيت ... وبعد أن تبادلنا التحية ناولتني رسالة ففضضتها ، فكانت من صديق محام يقول فيها :

« أخي العزيز ...

... وحاملة هذه الرسالة هي الآنسة سلمى كَيّان من سريان الجليل ، وهي فتاة تحب الغناء ، وأعتقد أن لها صوتاً جيداً ، فهل لك أن تساعدها في إبراز مواهبها ... ؟

خذ بيدها ، ولك عند الله الأجر والثواب » (...)

ودار بيني وبين الفتاة الحوار التالي :

— ألك أهل في هذا البلد ؟

— كلا ... وهذا أول عهدي بالمدينة ... !

— وكيف تأتين بمفردك إلى مدينة ليس لك فيها أهل تلجئين إليهم ؟ ...

— سأعود اليوم إلى بلدي بعد أن آخذ ردك .

— غير أن ما تطمحين إليه لا يأتيك على وجه السرعة ، يجب أن تنتظري بعض الوقت .

سأنتظر إذا ما رأيت في الأفق بارقة أمل ...

— وكيف تؤمنين معيشتك إلى أن تبلغي مأربك ؟ ...

— أقوم بأي عمل كان ... خادمة في بيت ... أو ممرضة في مستشفى .

— وأهلك ؟

وما يهمني أهلي ! ... أريد أن أكون فنانة ... إن صوتاً يهمس في أذني دائماً : قوي أيتها الفتاة ، واطرقي أبواب الاستديوهات ، والاذاعات ، والفرق الموسيقية . إنك ستكونين مطربة كبيرة ، أو ممثلة بارعة ... مارسي الآن الفن في هذا البلد الصغير ، ومتى بزغ نجمك فارحلي إلى مصر التي تقـــدر المواهب والعبقريات ...

— وهل تحملين رسالة إلى أحد غيري في هذه المدينة ؟

— أجل أحمل رسالة إلى حميد افندي صَبّاره مدير ستوديو الزهرة للتمثيل السينمائي ...

— عجباً ... إنني أدرى بهذه المدينة ومؤسساتها الفنية ، ولكني لم أسمع قط بأن فيها ستوديو للتمثيل السينمائي ! ...

— كيف لا ... وقد تلقيت من هذا الاستوديو لائحة التوظيف وطُلب مني تعبئتها ، ثم دُعيت للحضور إلى المدينة ، كي نشرع بالمفاوضة ... وإليك صورة من تلك اللائحة إن كنت تود الاطلاع عليها ...

عقلا يستمسك بالفضيلة ويخشى أبنا اتجه في حمى حارس قوي هو الضمير ، وتلوذ السيدة بالأيمان ذي العين البريئة وبالأمل ذي اليد البيضاء ، وبالعفة الملك ذي الجناحين الذهبيين الذي لا يقهر ، وتعوذ بهؤلاء أن يدرأوا الأذى عن حياتها وعن شرفها .

ثم تغني العذراء أنشودة جميلة توجهها إلى إكو[1] تسألها عن أخويها قائلة « إيه يا إكو الحلوة يا أجمل عذراء ، أنت يا من تعيشين خافية في قوقعتك الهوائية . يا من يطيب لك أغنية البلبل الحزينة يرقمها إليك متوجداً في لياليه على ضفة ميندر[2] الخضراء وفي واديه الموشى بالبنفسج ؛ أيتها العذراء ألا تدليني على اثنين جميلين أشبه ما يكونان بفتاك نرجس ؟ أو إذا كنت أخفيتهما في كهف من كهوف الزهر فدليني عليهما يا مليكة الرَّجْع ويا ابنة قبة السماء ، ولئن فعلت لأدعون لك أن تبلغي السماوات فتكوني هناك الصدى الجميل الرشيق لكل ألحان الجنة » .

(يتبع) الخفيف

(١) إحدى عذارى الجبل في الميثولوجيا الأغريقية أحبت شاباً جميلا اسمه نرجس أو قد ذابت توجداً عليه حتى لم تعد إلا صوتاً . ومن هـذا الاسم كلمة Echo الانجليزية ومعناها الصدى .

(٢) نهر في آسيا الصغرى شهير بالتواءاته الكثيرة .

وقرأت فيها :

« حضرة الآنسة سلمى ليان المحترمة .

تحية وسلاما ،وبعد ، تلقينا كتابك الذى تطلبين فيه الانضمام إلى ستوديو الزهرة للتمثيل السينمائى ... ويسرنا أن نحيطك علماً بأن الهيئة الإدارية للستوديو نظرت فى طلبك ، ورأت قبل مفاوضتك أن تتلقى منك أجوبة على الأسئلة التالية : هل تحبين الرياضة ؟ ... أتركبين الخيل ؟ ... أتسوقين السيارة ؟ ... أتسبحين ؟ وأى نوع من الرقص تحسنين : الشرقى أم الغربى ؟ ... وهل أنت اجتماعية فى حياتك العامة ؟ ... أتعزفين على آلة ما ؟ ... أتحبين الغناء ؟ ... وإن كنت تغنين فهل صوتك من درجة سوبرانو أم آلتو ؟ ... وإلى أى ناحية من المطالعة تميلين ... الرواية — القصة — الشعر ؟ ...

نرجو إعادة هذه اللائحة بعد الإجابة على ما جاء فيها من أسئلة ، مرفقة بثلاث صور لك فى أوضاع مختلفة ، الأولى نصفية تطلعين فيها بكامل وجهك ... والثانية تمثل جانب وجهك ... والثالثة تبين هيكلك بأجمعه ... ونأمل أن تأتى هذه الصور بعيدة عن التكلف ، ومشبعة بالروح الرياضية .

وتفضلى بقبول الخ ... إدارة ستوديو الزهرة للتمثيل السينمائى

ثم تابعت الفتاة حديثها قائلة : وذهبت فى ذلك اليوم إلى ستوديو الزهرة فوجدته غرفة صغيرة تحتوى على طاولة ، وتلفون وملفات ، وأربعة كراسى ، ومتكأ ، وصور لجميع ممثلى هوليود ، وكان حميد افندى منهمكا فى دراسة بعض الأوراق يدخن ويشرب القهوة ... ولما عرفته بنفسى ، ورأى أمارات الدهشة بادية على محياى اضطرب وقال : المعذرة أيتها الآنسة ، إننا نشغل هذه الغرفة مؤقتاً الآن إلى أن يتم بناء الستوديوهات ... نرجو ألا يزعجك ذلك ... فالفنانة يا آنستى لا تعير مثل هذه التوافه اهتماماً ... الأيام أمامنا ، وكل شىء مع الصبر جميل ... أتعرفين كيف بدأ ستوديو مصر عمله ؟ ... لقد كانت حالة مؤسسيه مثل حالتنا تماماً ، استأجروا فى بادىء الأمر غرفة فى شارع كلوت بك ،ثم نهضوا شيئاً فشيئاً إلى أن بلغوا درجة الكمال. تصورى أن الممثل السينمائى استهل حياته فى ستوديو مصر بعشرة جنيهات فى الشهر ، وهو يتقاضى اليوم خمسة عشر ألف جنيه لاشتراكه فى فيلم من الأفلام ... التضحية يا آنستى هى مفتاح النجاح والسعادة ...

هيّا ضعى يدك فى أيدينا ، وقولى توكلت على الله . نحن عشاق فن مثلك ، ومبتدئون ، تشجعى واعملى معنا ... لا تجعلى المال رائدك الآن . وثقى بأنه سيأتى عليك يوم ترفلين فيه بأثواب السعادة والهناء ، وسننشر صيتك فى كل أقطار العرب ، وسيصير لك معجبون ، وسترد لك الرسائل من كل حدب وصوب تحمل لك عبارات الثناء والإطراء ، والكل يطلب رسمك أو توقيعك ، وأنت لا تبخلين عليهم بذلك مطلقاً ... وإذا ما خرجت بسيارتك وقف الناس على جانبى الطريق يهتفون لك وأنت توزعين عليهم الابتسامات ذات اليمين وذات الشمال !

هيا يا فتاتى شمرى الردن عن ساعد الفن ! ... أما شروط الإتفاق فستكون مدار حديثنا هذا المساء على مائدة العشاء .

وتركت حمدى أفندى على أن أعود إليه ...

قلت لسلمى : أيتها الفتاة ، احذرى المدينة ، ولا تغرنك مظاهرها ، فهى أشبه بالمستنقع الذى تنمو على سطحه الحشائش الطرية الرقيقة ، وأزاهير الينوفر والأقحوان ، فيظنها الإنسان مرتعاً من مراتع أمنا الطبيعة ، فينطرح عليها طالباً متعة النفس وراحة الجسم ، فاذا بالأزاهير تغوص ، وبالحشائش تزول ، ويظهر مكانها حماً أسود تنبعث منه رائحة المياه الآسنة ، وهيهات للانسان أن ينجو من براثنه ، فهو كلما حاول الافلات من الحما تشبث به وامتصه قليلا فقليلا حتى يختفى تماماً .

قالت الفتاة : إننى لا أفقه شيئاً مما تقول ، جئت المدينة لأكون ممثلة أو مطربة وأنت تحدثنى عن المستنقعات ! ... أتشك فى حسن صوتى . أأغنى لك (أيها الراقدون) أم (أضحى التنائى) !

قلت : ما هذا الذى تقولينه أيتها الفتاة ؟ ... نحن لم نعتد أن نرى فتياتنا يتركن بيوتهن ليطرقن دور الفن ، فالمطربة عندنا تكتشف صدفة أن صوتها جميل ... هلا أطلعتنى على حقيقة أمرك ؟ ... أفصحى القول ، واسردى علىّ قصتك ...

ارتبكت سلمى ، وامتقع وجهها ، وطأطأت رأسها قليلا ، وروت لى مأساتها ، ومفاد هذه المأساة أن قلبها مال إلى شاب من شباب الحى لكن أهلها منعوها من الاتصال به ، وهددوها

نظرات فلسفية :

« الذات » ... !

للأستاذ زكريا ابراهيم

أجل « الذات » ! صاحبة الجلالة « الذات » ! حولها تدور كل موضوعات الفلسفة ، ونحوها يتجه كل بحث إنسانى . هى المركز فى دائرة الوجود ، وهى المحور فى كرة الإنسان ! غفل عنها الفلاسفة حيناً ، ثم اهتدوا إليها ، فاهتدوا إلى نفوسهم ، ومنذ ذلك الحين أصبحت هى نقطة البدء ونقطة الانتهاء .

أىّ موضوع لم يتطرّقْ إليه شك الفكرين ، وأية حقيقة لم تَرْقَ إليها شُبهات الفلاسفة ؟ لقد امتدّوا بشكّهم إلى كل موضوع ، ونشروا شُبهاتهم حول كل حقيقة ؛ أما «الذات» فقد بقيت دون متناول الشك ، وفوق كل شبهة ! أستغفر الله ، بل « ذاتى » هى وحدها التى لا سبيل لى إلى أن أشكّ فيها ، لأن بينى وبينك هوّة لا يمكن عبورها ! فكل منّا عالم مُغلق على ذاته ، وذاتك نفسها هى بالنسبة إلىّ « موضوع » كسائر الموضوعات الخارجية ! أما الوجود فلا علم لى به إلا عن طريق شعورى الخاص ؛ وهذا الشعور هو الحقيقة الوحيدة المباشرة التى يمكن أن تدركها « الذات » . فالذات هى كل شىء بالنسبة إلى صاحبها ، وكل حقيقة لا بدّ أن تكون موسومة بطابعها .

إننا لا نتلقى الحقائق التى نؤمن بها من الخارج ، بل نصنعها فى الأعماق الباطنة من نفوسنا . وكل حقيقة لا تنبثق من ثنايا النفس ، لا بد أن تكون زائفة مموّهة . فالحقيقة من شأنها دائما أن تكون « ذاتية » ؛ وحتى إذا لم تنبع الحقيقة من أبعد أغوار النفس ، فإنها لا بد أن تمرّ على « الرقيب » الذى يطبعها بالطابع الذاتى الخاص ! ولعلّ هذا هو المعنى الذى قصد إليه جيته حين قال : « إنّ ما ورثته عن آبائك وأجدادك ، لابدّ لك أن تحصّله بنفسك حتى يصبح ملكا لك » . فالإنسان لا يفهم تماما إلا ما فكر فيه بنفسه ، وهو لا يؤمن إيمانا قوياً إلا بما هداه إليه عقله . أما ما قاله الآخرون ، أو ما رُوِىَ عن السابقين ،

بالضرب والقتل إن هى حاولت التحدث إليه ، ودعوها مرة لتقدم القهوة إلى ضيوف أبيها ، وإذا بالضيوف أطباء جاءوا ليفحصوها ، ولما تبين لأهلها أنها عذراء زوجوها من ابن عمها الذى تكرهه ، وكان عاجزاً فى حياته الجنسية ، والتحق بالجيش بعد شهر من زواجه ، فأحبت الفتاة أن تنفصل عنه ، وقدّمت شكواها إلى المحكمة الكنسية ، فحولت هذه أوراق القضية إلى روما ، وانقضت ثلاث سنوات والفتاة تنتظر النتيجة ، فكانت مقيدة بزوج لا تشعر بكيانه ، وكان أهلها يدفعونها إلى الخدمة فى البيوت لتعول نفسها ، وكانوا يهينونها ، ويسمعونها لاذع الكلام ، فضاقت ذرعاً بهذه الحياة ، وعقدت النية على أن تفر إلى الدينة لتمتهن التمثيل علّها تأخذ فيه دور المآسى ! ... ولتحترف الغناء علّها تبث فيه ما فى نفسها من لوعة وألم ! ...

استمعتُ إلى مأساة سلمى ، ثم أقنعتها بضرورة العودة إلى ذويها ... وبعد مضى سنة علمت أنها فرّت ثانية من بيت أبيها ، وأحبت شابا مسلما وسألته أن يتزوجها .

فقال لها — لكننى أريدا أن تمتنق الدين الإسلامى ؟

قالت — أسلمت ! ...

قال — ولا أريدك أن تكونى سافرة .

قالت — سأتشح بالسواد من أجلك ...

قال — ولا أريدك أن تخرجى من البيت .

قالت — لن أخرج من البيت إلا إلى مثواى الأخير ! ...

وأعلنت إسلامها فى الجريدة الرسمية ، وانزوت فى بيتها الجديد ... فقد مثّلت دورها ... وغنّت أغنيتها ، ولا ينغص عليها حياتها إلا أهلها الأولون الذين يحاولون عبثاً الوصول إليها فجاءها شقيقها مرة كبائع زيت ... وجاءها عمها كبائع أقمشة متجول ... وجاءتها شقيقتها كبائعة زهور ... وآخر من جاءها أبوها فكان يقرع باب الدار قرعا عنيفاً ويصرخ قائلا : سلمى سلمى ... أبشرى يا ابنتى ... أبشرى ... لقد جاءك الطلاق من روما ! ...

نجاتى صدقى

فهذا ما لا يمكن أن يفهمه المرء جيداً ، إلا إذا دلَّته عليه نفسه ، وأثبته له عقله . فكل حقيقة مهما كان من انتشارها وسيادتها ، لا بد أن تهبط إلى الأغوار السحيقة التي تُصنع فيها الحقائق ، حتى تتلقى من « الذات » اعترافا بصحتها ، وإقراراً بصدقها . ولهذا فان كل إيمان لا بد أن يكون « فردياً » حتى يكون إيماناً حقيقياً ...

ولكن ، هل جاءت قيمة « الذات » من أنها صانعة « الحقيقة » فحسب ؟ كلا ، بل هي أيضاً خالقة « الشخصية » . ففي أبعد أغوار الذات ، تكمن قوى الفرد التي تحدِّد شخصيته وتعيِّن سلوكه في الحياة . وهذه القوى الكامنة التي لا تظهر بوضوح في «الطبقة السطحية» من الذات ، بل تنتشر في المسارب الخفيَّة منها ، مكوِّنة وجودها الفرديّ الخاص بمعناه الحقيقي .

وكثيراً ما تكون هذه القوى الكامنة التي تكوِّن جوهر الذات مجهولة لدينا ، فتجيء أفعالنا مفاجئة للآخرين . وقد نزعم أن إمكانياتنا قد استُوعبت واستُهلكت ، فاذا بنا نجد أن من الممكن أن ينبثق من أعماق نفوسنا شيء جديد . ولهذا فإن من الخطأ البالغ أن نحكم على نفوسنا بأنها ليست أهلا لهذا العمل أو ذاك ، لأن التجربة كثيراً ما تظهرنا على أن في استطاعتنا أن نعمل ما كنا نعتقد أن ليس لنا عليه يدان !

وليست الحياة الفردية سوى تحقيق مستمر لكل القيم المتضمَّنة على شكل قوى أو إمكانيَّات في ثنايا الذات . وتحويل القوة إلى فعل هو جوهر الحياة الإنسانية ومعناها الأوحد . وهذا التوتر الذي يوجد بين ما حُقِّق ، وما لا بد أن يُحقَّق ، هو القوة المحرِّكة الأولى في الحياة الإنسانية . فإذا حقق إنسان كل ما لديه من قوى مدخرة ، وإمكانيات كامنة في أعماق نفسه بحيث لم تعد لديه قوة جديدة يمكن أن يحققها ، فلا بدّ أن تصل حياته إلى نهايتها ؛ لأن ذاته أقفرت ، وإقفار الذات معناه الموت.

ولكن ما دام المرء حياً ، فلن يكون في وسع أحد أن يقول عنه ، ولن يكون في وسعه هو أن يقول عن نفسه ، إنّ شيئاً جديداً لا يمكن أن يُنتظر منه ! فطالما كانت الذات حيَّة خصبة ، كان لابد لها أن تُزْهر ! وقد تمرض للذات أحداث بسيطة ، فتكون مدعاة لظهور أمور جديدة ، أو إيقاظ أفكار كامنة ، أو تولُّد معان لم تكن منتظرة !

أجل ! إنها الذات ؛ والذات عالم يعجّ بالأفكار والمعاني ؛ ومن أعماق هذا العالم الصاخب تنبثق الأفكار العظيمة ، والمعاني الجليلة ! فهل من حرج على الفلاسفة إذا لخصوا رسالتهم في عبارة موجزة ، فقالوا على لسان شيخهم سقراط : « أيها الإنسان : اعرف نفسك » ! ؟

إن « الذات » هي الحقيقة الأولى والأخيرة ، فليس بدْعاً أن تؤكد الذات نفسها بكل قوة على لسان شوبنهور قائلة : « إن العالم من تصوّري » وهل يقوم للعالم الخارجي وجود بدون الذات المفكرة ، التي تخلع عليه معنى من عندها ؟. إنها الذات وكفى !

(مصر الجديدة) **زكريا إبراهيم**

مدرس الفلسفة بالمدارس الثانوية

طنجة والنظام الدولي

ضرورة تقرير وحدة مراكش واستقلالها في المؤتمر الدولي القادم

للأديب عبد المجيد بن جلون

تقع مدينة طنجة عند المدخل الغربي للبحر الأبيض المتوسط وهي مدينة جميلة خضعت لمؤثرات غريبة وحكم عليها موقعها الجغرافي بأن تنفرد عن أمها مراكش بالنظام الدولي .

ولسنا نريد أن نتحدث هنا عن النظم المطبقة فيها بقدر ما نريد أن نلفت النظر إلى ما لهذا النظام من أثر سيء في حياة المراكشيين الذين يقطنونها .

وأول ما يلاحظ هو أن المدينة أصبحت وكراً من أوكار الجاسوسية في العالم ، ففيها تلتقي أجناس مختلفة لا حصر لها ، تفد إليها من الشرق والغرب ، وبذلك تلتقي فيها الأخبار ويسهل إذاعتها والتقاطها ، ولكل من الشيوعية والفاشية والديمقراطية فيها عيون ساهرة أو أفواه ناطقة . وقد كان لوجود هذا المزيج البشري الغريب تأثير عميق على أحوال المدينة العامة ، فانتشرت المراقص والحانات وأمكنة القامرة ونقل إليها هؤلاء الوافدون عليها — وهم من طبقات منحطة في الغالب — كل ما يوجد في العالم من موبقات .

ثم إن هؤلاء الوافدين عليها قد تجاهلوا أن هناك غيرهم في المدينة مع أن عدد المراكشيين ينيف على مئة ألف يشتط الأجانب في اغتصاب حقوقهم من الإدارة الدولية ، ولما كانت هذه الإدارة تتأثر بعوامل مغرضة ، ولما كان الفرنسيون والأسبانيون يخشون من أن يستفيد المراكشيون من الأنظمة الحرة التي يعمل الأجانب على استصدارها ، فقد استطاعوا أن يصلوا إلى غاياتهم بالتفريق بين التشريعات الخاصة بالأجانب والتشريعات الخاصة بالوطنيين ؛ وبذلك صدرت قوانين استثنائية لحق الأهالي منها ضرر بليغ .

صحيح أن جلالة ملك مراكش الممثل بواسطة مندوب هو السلطة التشريعية العليا للمدينة ، وأن كل ما يخصها يصدر براسيم ملكية ، ولكن كل هذا من الناحية الشكلية فقط ، أما الحقيقة الواقعة فهي أن حق الاعتراض الذي يتمتع به أعضاء مجلسها قد أفقد المراكشيين كل سلطان ؛ وبينما يدفع الأهالي الوطنيون ٩٠ ٪ من ضرائب المدينة ، إذا بالأجانب يتمتعون بالمدارس الخاصة والقوانين الاستثنائية والامتيازات المجحفة ، أي إن الأجانب يعيشون فيها على حساب المراكشيين .

ولما كانت لبعض الدول الممثلة في المجلس أغراض معينة تعمل على تحقيقها ، ولما كانت هذه الأغراض المعينة تتضارب في بعض الأحيان ، ولما كان النفوذ يتنقل بالدور بين الأعضاء تحت الرياسة الإسمية لمندوب جلالة الملك — فقد تعرضت المدينة ونظامها للخلل بسبب كثرة الإبرام والنقض وفوضى الأهواء والنزعات .

ثم بعد ذلك نجد أن المدينة كانت تتمتع قبل النظام الدولي بنهضة ثقافية واجتماعية قد تعرضت في حياتها للشلل بسبب استفحال أمر الأجانب فيها ؛ وهكذا تعطلت فيها مشروعات الإصلاح كما تعطلت فيها الصحف العربية وهي التي كانت يوماً ما المهد الذي نشأت فيه الصحافة العربية المراكشية ، ويكفي أن نقول لكي نبرهن على مبلغ الضرر الذي ألحقه الأجانب بها ، أنه لم تصدر فيها صحيفة واحدة باللغة العربية منذ نشأ النظام الدولي فيها ، وأن الصحف تصدر فيها بعدة لغات أخرى ، ذلك أنه يوجد في القانون الذي صدر سنة ١٩٢٣ بند خطير يمنع الأهالي من القيام بأي نشاط سياسي مهما كان طابعه مراكشياً ، وهذا البند ينص على منعهم من مطالبة فرنسا وأسبانيا بإصلاح الموقف في مراكش تحت ستار « منع الدعاية للقضية المراكشية » أو « عدم القيام بأي نشاط ضد نظام الحماية في منطقتي مراكش الخاضعتين للحماية الفرنسية والأسبانية » .

* * *

ولعل الأجانب قد أدركوا مساوىء هذا النظام ، ولذلك قرروا إعادة النظر فيه بواسطة عقد مؤتمر في خلال الشهور القليلة القادمة ، وأملنا هو أن يدركوا هذه الحقائق التي سردناها ، فيعيدوا إلى مندوب جلالة الملك سلطته الحقيقية ، ويفكوا عن مئة ألف من المراكشيين القيود الثقيلة التي فرضها عليهم نظام

سنة ١٩٢٣ بحيث تكون الأغلبية الساحقة من المراكشيين بنسبة ١٠ إلى ١٠٠ بحجة أنهم يؤلفون هذه النسبة الضخمة. ونحن نعرف أن المؤتمر سوف يتألف من أعضاء دول الجزيرة كما نعرف أن مراكش إحدى هذه الدول، ولذلك يجب ألا تمثل فيه فحسب، بل يجب أن يكون صوتها مسموعا وأن يكون هذا الصوت صادراً عن الشعب المراكشي ذاته.

ونحن متأكدون من أن أى نظام دولى مهما كان لونه لن يحقق مصالح هذه المدينة ولا مصالح القطر كله، ولذلك يجب أن ينظر المؤتمر فى مسألة مراكش كلها لا فى مسألة طنجة وحدها، على اعتبار أن المدينة غير منفصلة عن أمها الكبرى، فلأجل بحث مسألة طنجة يجب البحث فى مسألة مراكش كما يرجع الباحث فى الفروع إلى الأصول.

إن الداء الوبيل الذى لن يستقر معه نظام فى أى شبر من الأقاليم المراكشية هو نظام الحماية، نظام التقسيم والتبديد والفوضى، ذلك أن الأساس الذى يقوم عليه نظام الحماية فى مراكش أساس فاشل، وهو أساس يعبر عن قصر فى النظر شنيع، وهذا الأساس هو تقسيم مراكش إلى عدة مناطق. فلو فرضنا أن الإخاء والحرية والمساواة والعدالة محققة — ولو فى الخيال — فى كل منطقة من هذه المناطق، فان ذلك لن يغنى فتيلا فى إرضاء المراكشى، لأنه ممنوع من أن يمد يده لمصافحة أخيه، ولأنه قد انتزع انتزاعاً من أمه مراكش.

وإذن فليس هناك حل لهذه المشكلة المراكشية سوى إلغاء الحماية، وإلغاء التقسيم، وتقرير مبدأ جديد هو مبدأ الوحدة المراكشية، ولا سبيل إلى تحقيق هذه الوحدة — من وجهة النظر العملية — إلا بإلغاء الحماية وتقرير مبدأ الاستقلال، ثم بعد ذلك تجتمع دول معاهدة الجزيرة الخضراء — ومنها مراكش — لتنظر فى نظام جديد يحفظ كرامة المراكشيين ومصالح الأجانب فى وقت واحد.

مبدأ الحماية والتقسيم مبدأ جائر تحمل المراكشيون بسببهما أفظع التضحيات، ومبدأ الاستقلال والوحدة هو المبدأ الذى يجب أن يقوم عليه كل بحث يتعرض لأى جزء من أجزاء مراكش؛ وكل حل غير هذا بعيد عن أن يثبت الأمن والنظام، أو يضمن الديمقراطية لشعب حارب فى سبيل الديمقراطية عشر سنوات كاملة فى حربين عالميتين!

الديمقراطية! إنها النظام الذى ساهم المراكشيون فى تدعيمه بأعز ما يملكون من دماء ومع ذلك ما يزالون إلى اليوم محرومين من التمتع بأبسط مزاياها.

عبد المجيد بن جلون

وادى الخلود . . .

[مهداة إلى وفد الجنوب]

للأستاذ سيد قطب

على ضِفاف الخلودْ … وفى شِعاب الزمنْ
والدهرُ طفلٌ وليد … قد كان هذا الوطن

يا فجرُ من ذا رآك … تطوف تلك السماء
وليس حىٌّ سواك … تُهدى إليه الضياء ؟

رأتك تلك الضفاف … رأتك تلك البرور
رأتك قبل المطاف … وأنت طفلٌ غرير

وشبتَ والدهر شابْ … وحنّكتْكَ الحياه
والنيلُ بادى الشباب … والزهرُ يقفو خطاه

ينساب مثل النغم … فى عزف نايٍ طروب
وكانسياب الحُلم … تُضفى عليه الغيوب

خريرُه صلواتْ … مُعطّراتُ النشيدْ
وموجُه أغنياتْ … مرتّلات القصيد

يا نيلُ كم من شِراع … يا نيلُ كم من سفين
أسلمْتَها للوداع … على مدارِ السنين !

يا نيلُ كم من جُموع … ماجتْ بتلك الضفاف
يا نيلُ كم من زروع … وذى وذى للقطاف !

وأنت صِنو الخلودْ … وفى يديك الزِّمامْ
وكل عامٍ تعود … مجدّدَ الأيام

تجرى فتجرى الحياه … ويُمرِع الشاطئانْ
ويستفيق الرُّعاه … وتمرحُ القطعانْ

وينشط الزرزور … فيجمعُ الميدانْ
وعشُّه معمور … بفرخه الوسنانْ

أكاد خلفَ القرون … أحسُّ رِكزَ الجموع
أرامَ مُهطِعين … فى موكب للربيع

قد شمّروا للحصاد … وخلّفوا « أمشير »
فى فرحة الأولاد … تسابقوا للبُكور

وموكب للرَّوَاح … فى كل يوم يَؤُوبْ
يزفُّه الفلاّح … على مدار الغُروب

من الحقول الربيعه … إلى الحِمَى والديار
تضمُّ فيه الطبيعه … عيالها الأبرار !

لُحونُه من صِياح … ومن رُغاء النَّعمْ
ومن رجيع النُّباح … ومن ثُغاء الغَنَم

على مدار القرون … يسيرُ فيه الرُّعاه
كأنهم خالدون … ما بُدّلوا فى الحياه !

أحبُّ فيك الخلودْ … يا أيها الوادى
أحبّ فيك الصمود … للقاهر العادى

تصبُّ فيك الوفود … وأنت يقظانُ ساهر
تصوغهم من جديد … كأنما أنت ساحر !

يا مهبط الأسرار … من الغيوب العميقة
يا موطن الأسحار … من القرون السحيقة

يأوى إليك الزمان … خوف البِلى والفناء
يأوى لحصن الأمان … فيستمد البقاء !

ووجهُكَ الفتان … بلونه الأسمر
يا طالما يزدان … بزرعك الأخضر !

ترنو له عينـاى … فى فتنة العاشق !
يا أرض يا دنياى … يا آية الخالق

يا أرض كم تحلمين … بالزهر أحلام شاعر
رؤاك طولَ السنين … يا أرض تلك الأزاهر

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

٧١٣ — إن ذا من العجب

أمس بالكرم إن عبرت به   تأخذني نشوة من الطرب
أسكر بالأمس إن عزمت على الشرب غداً إن ذا من العجب

٧١٤ – ولكن أعلل قلباً عليلا

جحظة :

إذا ما ظمئت إلى ريقها   جعلت المدامة منه بديلا
وأين المدامة من ريقها   ولكن أعلل قلباً عليلا

وريحك المعروف يشمّه أنفي
في خاطري مألوف مميّزُ العَرف

يا أرض هذا الصعيد   مقدس في ضميري
سرى عليه الجدود   وأخلدوا للقبور

يكاد فرط الحنين   إليهمُ في شعوري
يردّهم شاخصين   إليّ خلف الدهور !

يا أرضُ سرٌّ دفين   مغيّبٌ في ثراك
يردّنا مُوثَقين   إليكِ أسرَى هواك

هذا الثرى المنثور   في صفحة الوادي
عرفته في الضمير   رفاتَ أجدادي !

يا أرضُ هذا النشيد   من وحيك العبقريّ
فنوّليه الخلود   بسرّك القدسيّ

٧١٥ - على ما يقال

قال شيخ الإسلام ابن دقيق العيد :

وأطيب شيء إذا ذقته   رضاب الحبيب على ما يقال

٧١٦ — أبو نؤاس الناسك

من مجون أبي نؤاس أن الأمير لما نهاه عن الخمر وحبسه ، فكلمه فيه الفضل بن الربيع وأخرجه كتب إليه :

أنت يابن الربيع علمتني الخيـ   ـر وعودتنيه والخير عاده
فارعوى باطلي وراجعني الحلـ   ـم فأحدثت عفة وزهاده
لوتراني ذكرت بي الحسن البصـ   ـري في حال نسكه أو قتاده
التسابيح في ذراعيّ والمصـ   ـحف في لبتي مكان القلاده
فإذا شئت أن ترى طرفة تعـ   ـجب منها مليحة مستفاده
فادع بي لا عدمت تقويم مثلي   فتأمل بعينك السجاده
لو رآها بعض المرائين يوماً   لاشتراها يعدها للشهاده
أو لاح للصلاة بوجهي   توقن النفس أنه من عباده
ولقد طالما شقيت ولكن   أدركتني على يديك السعاده

٧١٧ — يعبد الله على حرف

قال أبو عمرو الزاهد : دلك بعض الزهاد المرائين جبهته بثوم وعصبها ونام ليصبح بها أثر السجود ، فانحرفت العصابة إلى صدغه ، فأخذ الأثر هناك .

فقال له ابنه : ما هذا يا أبت ؟

قال : أصبح أبوك ممن يعبد الله على حرف .

٧١٨ — وبيانها سحر مقلتها

وصف أحمد بن أبي خالد جارية كاتبة فقال : كان خطها أشكال صورتها ، ومدادها سواد شعرها ، وقرطاسها أديم وجهها ، وقلمها بعض أناملها ، وبيانها سحر مقلتها .

٧١٩ — يفسي المصيبة

قال المبرد : لما توفيت والدة إسمعيل بن إسحق القاضي ركبت إليه أعزيه وأتوجع له ، فألفيت عنده الجلة من بني هاشم والفقهاء

والعدول ومستوري مدينة السلام ، ورأيت من وله ما أبداه ولم يقدر على ستره ، وكل بعزيه وقد كاد لا يسلو ، فلما رأيت ذلك منه ابتدأت بعد التسليم فأنشدته :

لعمري لئن غال ريب الزما ن فينا لقد غال نفسا حبيبه
ولكن علمي بما في الثوا ب عند المصيبة ينسى المصيبه

فتفهم كلامي واستحسنه ، ودعا بدواة وكتبه ورأيته بعد قد انبسط وجهه ، وزال عنه ما كان فيه من تلك الكآبة ، وشدة الجزع .

٧٢٠ — أنت الفداء لمن ابتدأ هذا فأحسن

قال عون بن محمد الكندي : كنا مع مخلد الموصلي في مجلس وكان معنا عبد الله بن ربيعة الرقي ، فأنشد مخلد قصيدته التي يقول فيها :

كل شيء أقوى عليه ولكن ليس لي بالفراق منك يدان

فجعل[1] يستحسنه ويردده ، فقال له عبد الله : أنت الفداء لمن ابتدأ هذا المعنى فأحسن فيه حيث يقول :

سلبتني من السرور ثيابا وكستني من الهموم ثيابا
كلما أغلقت من الوصل بابا فتحت لي إلى المنية بابا
عذبيني بكل شيء سوى الصد (م) فما ذقت كالصدود عذابا[2]

فضحك الموصلي ...

٧٢١ — خليا سبيل الصبا يخلص إلى نسيمها

تزوج أبو الفرج بن الجوزي امرأة اسمها نسيم الصبا فأقام معها مدة ، ثم وقعت بينهما وحشة ففارقها فاشتد كلفه وزاد غرامه وراسلها فأبت عليه وطال بينهما الأمر . ثم حضرت مجلس وعظه يوما فلاحت منه نظرة فرآها وقد استترت بجاريتين ، فتنفس الصعداء، وأنشد قول قيس بن الملوح (مجنون ليلى) :

أيا جبلي نعمان بالله خليا سبيل الصبا يخلص إلى نسيمها

(١) أي مخلد ، قائله .
(٢) العباس بن الأحنف .

أجد بردها أو تشف مني حزازة على كبد لم يبق إلا صميمها

فاستحيت ثم ذهبت وقد داخلتها الرقة، فحكت لبعض النساء ذلك فمضت فأخبرته فراسلها فأجابت فتزوج بها .

٧٢٢ — الأقيشر والشرطي

في (الأغاني) :

شرب المغيرة بن عبد الله الملقب بالأقيشر يوما في بيت خمار في الحيرة ، فجاء شرطي من شرط الأمير ليدخل عليه فغلق الباب دونه فناداه الشرطي : أسقني نبيذا وأنت آمن .

فقال : والله ما آمنك . ولكن هذا ثقب في الباب فاجلس عنده وأنا أسقيك منه . ثم وضع له أنبوبا من قصب في الثقب ، وصب فيه نبيذا من داخل والشرطي يشرب من خارج الباب حتى سكر . فقال الأقيشر :

سأل الشرطي أن نسقيه فسقيناه بأنبوب القصب
إنما نشرب من أموالنا فسلوا الشرطي ما هذا الغضب

٧٢٣ — وقع بين موسى وفرعون شمرية

قال الاصمعي : سألت أعرابيا وقد خرج من الصلاة : ما قرأ الإمام ؟ قال : ما أدري إلا أنه وقع بين موسى وفرعون شِمِرِّيَّة[1]

٧٢٤ — مصيبتان

كتب أحمد بن يوسف الكاتب لبعض إخوانه من الكتاب وقد ماتت له بيغا ، وقد كان له أخ يضعف :

أنت تبقى ونحن طرا فداكا أحسن الله ذو الجلال عزاكا
فلقد جل خطب دهر أتانا بمقادير أتلفت ببغاكا
عجبا للمنون كيف أتتها وتخطت عبد الحميد أخاكا
كان عبد الحميد أصلح للمو ت من الببغا وأولى بذاكا
شملتنا المصيبتان جميعا فقدنا هذه ورؤية ذاكا

(١) شر خصومة شديدة ، في الأساس : أجاءه الخوف إلى شر شمر أي خاف شرا فرده الخوف إلى شر منه ، وفي (اللسان والتاج): معنى شر شمر إذا كان شديدا يشمر فيه عن الساعدين .

زوجتى . . . !

وفاء ورثاء

للدكتور أحمد زكى أبو شادى

سافر إلى نيويورك يوم الأحد الماضى الدكتور أحمد زكي أبو شادى ليقيم بها هو وأسرته ، وقد أرسل إلينا ليلة سفره هذه القصيدة ومعها كتاب يقول فيه :

« كان بودى أن أزورك مودعاً قبيل مبارحة وطنى الذى لم تسمح لى الظروف بخدمته كما أود ، ولكن أحوالى الخاصة لم تمكنى من مغادرة الأسكندرية لهذا القصد ، وسأبحر منها مع أولادى على الباخرة ڤلكانيا Vulcania يوم الأحد ١٤ أبريل وعلى فمى بيت المتنبي :

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا ألا تفارقهم فالراحلون همو !

وكان بودى لو حملت رسالة توديعى طاقة باسمة لا هذه المرثية الحزينة لزوجتي ولكنها أغلى ما أملكه الآن وقد ارتسمت فيها ذكرياتى وعواطفى وأشجانى »

كتب الله للدكتور السلامة ، ومن عليه فى مهجره بطيب الاقامة .

ماذا تفيدك لوعتى وبكائى ؟ هذا فناؤك مؤذن بفنائى !
أسديت عمرك للحياة فاوفت ومضيت للأبرار والشهداء
لهفى عليك وقد أتيت مودعاً فبكيت فوق جبينك الوضاء
زاد الممات جماله وتناثرت منى الدموع عليك كالأنداء
كانت حشاشتى المذابة حرقة وبقية المكنوز من نعمائى
فترنحت بفجيعتى، وتضوعت بسرورتى ، وتلألأت بوفائى
وروت محيا كان جنة نعمتى وملاذ تفكيرى ووحى ذكائى
وطرحت آلام الحياة عزيزة فبدوت بين سماحة وصفاء
وأقبل الوجه الحبيب ، وطالما أودعت فيه صبابتى ورجائى
شمل السلام هدوءه وتبددت غير السنين، وزال برح الداء
وأكاد أنسى للممات خشوعه لما نسيت تجلدى ومضائى
كم كنت أغلق بالخيال توهماً وأرى الشفاء ولات حين شفاء
ويغالط القدر المتى تفاؤلى وأنا الخصيم لخدعة ورياء
آبى اعترافاً بالممات ، كأننى لما بكيتك قد أضل بكائى
أو أن هذا الموت حق ثابت إلا على الأحباب والخلصاء
أو أن عيشى أن أراك بجانبى مهما هزلت فلا يهد بنائى
أعتاض باللمحات عن أغنية وعن الحديث المذب بالإيماء
وأعد أنفاساً وهنبت ، ذخيرتى وحفيف ألفاظ همست ، رخائى
وأموه الألم الدفين وأتقى علماً به ، وأصده بغبائى
وأكاد أقسو فى مجانبة له أوليس جسمك رمز كل نقاء ؟
متنزهاً عن كل ماشان الورى مترفعاً عن علة وعناء
حتى صدمت ، ولا كصدمة شاهق متحطم بصخوره الصماء
فجننت من حزنى وعفت حصانتى ودفنت كل رجاحتى العمياء !

* * *

لهفى عليك زميلتى فى رحلتى وشريكتى فى الصفو والضراء
لم أرض غيرى أن يسير مشيعاً أو أن توزع حرقتى وعنائى
وكتمت نعيك، لم أضن بذكره وأحوطه بنهاى واستحيائى
لبثت رغبتك الزكية دائماً ووعيتها نبلاً ولطف حياء
وجملت مأتمك الرهيب عواطفى وبخلت بالتنويه والإفضاء
حتى تفجر بى الأنين ملاحماً وجرى النظيم بأدمعى ودمائى
ما كنت أحسب أن يومك سابق أو أن أيام الحياة ورائى
كنا نهيء للرحيل متاعنا وننسق الآمال غير بطاء
ونهيب بالدنيا لتشهد حظنا ونهش للأيام والأنباء
ونرد عادية الأنام تسامحاً مستغفرين لجاحد ومرائى
متسابقين لنملأ الدنيا سنى بالحب والإيثار والإيحاء
فاذا رحيلك للنوى، ووداعنا للحظ ، والباقى الكليم ذمائى
غدرت بى الدنيا ، كأنى لم أصغ فيها الثناء فما أفاد ثنائى
ووهبتها ـ كرماً ـ عزيز مواهبى فجنت على شهامتى وعطائى
اليوم أدرك أى عبء فادح عنى رفعت وما مدى أعبائى
كم كنت أحلم بالهناءة والرضى لك فى نهاية عمرك المتنائى
فأود من قلبى بقاءك بعد ما أفنى وأحسب فى هواك بقائى
وأعد عمرك وحده عمرى وما أرضى سواك من الحياة جزائى
فتناثر الحلم الجميل وأقفرت دنياى من حلم ومن أضواء
وبقيت وحدى لاعزاء أرومه والذكريات تزيد من برحائى
يا طالما ناجيتها فى نشوتى واليوم قد أصبحن من أعدائى
ما نعمتى فيها ؟ وأنت هى التى جملت بصحبتها الأسى نعمائى

يامن فُتِنْتِ بكل ما هو رائعٌ ... وخلقتِ ألوانَ الجمالِ إزائي
ورسمتِ لي دنيا مُنوَّعة الشذى ... قدسيَّةَ الألحانِ والأصداء
وبثثتِ بي حبَّ الطبيعة فاغتدت ... أنَّى ، أضعتِ عزاءها وعزائي
يامن غناؤكِ شدوُها وحنينها ... وصداهُ في قلبي الشجيِّ غنائي
لما سكتِّ تقاطرتْ عبراتُها ... واستسلمتْ للَّوعة الخرساء
ومضى الرَّبيع مع الشتاء فلم أجد ... إلا مظاهر وحشة وخلاء
تبكيك أخلص من وفت لروائها ... وتصوفت بمروجها الغناء
ورأت بها الخير اللباب فما شكت ... منها وناجتها أرقَّ نجاء
وتناولت ألَقَ النجوم فأترعت ... منه دنانَ الحب للشعراء
كم ألهمتني من عيونك صورة ... جمعت أحبَّ عواطفي ومرائي
وتبسُّمُ تتبسَّمُ الدنيا له ... ويغيب عن معنى وعن خيلاء
ورشاقةٌ معسولةٌ ملحونةٌ ... كقصيدةٍ خلابةٍ عصماء
كم كنت أهتف بالنشيد ولم يكن ... إلا خطوط جمالك الوضاء
تجرى البراعةُ في يدى مزهوةً ... بتغزلي ، ويهزني إملائي
مترنماً بالحبِّ بين ولائمٍ ... للزهر والأمواه والأضواء
وإخالُ في دعة المروج جناننا ... وأشم في ألق الغدير سمائي
أيامَ كنا والشبيبةُ والهوى ... حلفاء في أمن من الغرماء
أيام كنا نستعيدُ تُراءنا ... قُبلاء ، ونضحك من غنى وثراء
أيام كنّا الحاكين بأمرنا ... الساكنين منازلَ الجوزاء
أيام كنا ذاهلين عن الرَّدى ... نجرى ونمرح في الربى الفيحاء
ونخوض موج البحر ملء دعابة ... متهللين على هدير الماء
متحمسين كأنما خمرُ الصبا ... خمر الألوهة من أعزِّ سماء
متلمسين بكلِّ شيء لذةً ... ومطوعين المستحيل النائي
وإذا غضبنا عاد حبك غافراً ... وتعثرت شكواك عند ندائي
وفرحت بي فرح الحبيب بإلفه ... قد عادَ بعد مخاطرٍ هوجاء
عشنا السنين كأنها أنشودة ... علويةٌ جلّت عن الضوضاء
متجددين ، وإذ فقدتك لم يكن ... فقدي لنير فتاتي الهيفاء
من رامها أهلُ الفنونِ نموذجاً ... للمبدعين ومن لها أهوائي
من صوتها الحلو الشجي سلافتي ... وحنانُها العذب السخي دوائي
من لم تدع غير البشاشة وحدها ... تفشي خواطرها لنقدِ الرائي
من أشربت حب الدعابة سمحة ... واستضحكت لمصاعب الأشياء
من لم تر الدنيا سوى تغريدة ... فأبتْ هواجسها أشدَّ إباء
من لم تُرَدِّدْ غير آمالِ الصبا ... لتردَّني لطلاقتي ورضائي
من عشت أفديها بكل جوارحي ... فإذا الفداء يهونُ وهي فدائي
من علمتني أن أقدس واجبي ... مهما شقيت فأستطيب شقائي
من لم تُوَدِّعْ في السقام وفاءها ... للناس حين مضوا بكلِّ وفاء
من لم تفارقها الشجاعةُ مرة ... حتى الممات ، شجاعة العظماء
فمضت وخلّتني وحيداً عابراً ... قفرَ الحياةِ أنوء بالأنواء
هيمان ، قربك وحده مستنقذي ... ظمآن ، ليس سواكِ رِيٌّ ظمائي
أقتاتُ بالحزنِ المبرِّح راضياً ... وأعافُ كلَّ ملاحةٍ وسناء
وأضعت فني بعد موتك في الأسى ... وكأنما صُوَرُ الجمال بلائي
من طالما ناجيتها متغزلاً ... غرداً ، ففات بهاؤها وبهائي
كانت لروحي منك أُنسَ مدامة ... ومجالَ أشواقي ونبعَ صفاء
ومثلتِ أنتِ بكلِّ ما أحببته ... فالآنَ أينَ تهافتي ونجائي ؟
أين ابتسامتكِ الشذيةُ بالمنى ... والنورِ حين أهيمُ في الظلماء ؟
أين ابتداعك للحديث تفنُّناً ... وتسلسلاً يغني عن الندماء ؟
أين اغتباطك بالمروءة والندى ... والعطف والغفران والإسداء ؟
قُبِرتِ كما غاب النهارُ أشعةً ... وكأنما أشلاؤها أشلائي
وتركت في دنيا القساوة والأذى ... متهالكاً أمشي على الرمضاء !

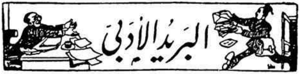
* * *

قالوا : تصبر ! إن حولك رفقة ... منها ، وحسبك صفوةُ الأبناء
ورثوا مكارم خلقها وسماتها ... إرثاً تُدلُّ به على الآباء !
ياليتهم عرفوا شمول عواطفي ... ووفاء وجداني وصدقَ ولائي
شيم شقيت بها وما عف الورى ... فأثارهُمْ شممي وفرطُ إبائي
وبقيت أسخر من جراحي هازئاً ... بفواجع الآلامِ والأرزاء
مستلهماً من لم تدعني مرة ... في الحادثاتِ أضيقُ بالأحياء
فالآن بعد ذهابها ومصابها ... لم يغنني شممي ولا استعلائي !

* * *

تمضي الحوادثُ والسنونُ وتنقضي ... أممٌ على أممٍ صباحَ مساء
ويظلُّ قلبي هيكلاً لكِ خالداً ... أبداً يرتل لوعتي ورثائي !

احمد زكي أبو شادي



رواية من النسق العالي :

ليت الذين يتصورون لعامية المسرح يشهدون رواية (تاج المرأة) فى دار الأوبرا الملكية فيروا كيف تتسلسل العربية البليغة على أفواه الممثلين تسلسل الذهب ، وترن فى أسماع الشاهدين رنين الفضة ، وتؤدى معانى الكاتب الفرنسى النابغ أداء صادقاً قوياً لا تضيع فيه لمحات النظر ، ولا لفتات الذهن ، ولا براعة الحوار ، ولا حلاوة النكتة .

لقد كان تمثيل هذه الرواية نصراً عظيما للغة العربية وللفرقة القومية فى وقت واحد : كان نصرا للغة العربية لأنها استطاعت بدقة الترجمة وقوة التمثيل أن تبرهن لخصومها على أنها اللغة الطبيعية المجتمع الحديث والمسرح المهذب . وهل تكون الطبيعة شيئاً آخر غير هذا الانسجام العجيب بين الحركات والكلمات ، وبين المواقف والعواطف ، وبين التمثيل والواقع ؟

كانت اللغة لسلاستها ومرونتها أداة جيدة التوصيل بين المؤلف والمترجم ، وبين المترجم والممثل ، وبين الممثل والجمهور ؛ فالممثلون مندمجون فى أدوارهم لا يحسون نبواً فى العبارة ولا حرجاً فى الأداء ، والشاهدون مأخوذون بسحر التمثيل وجاذبية الرواية لا يشعرون بوجود مستقل عن هذا الوجود الذى خلقه فى الفرنسية اسكندر دوماس ، وصوره فى العربية الأستاذ كامل الهنساوى !

ثم كان نصراً للفرقة القومية لأنها أقامت الدليل العملى على أن فى مقدورها أن تؤدى رسالة الفن على وجهها الصحيح إذا تهيأت لها الإدارة الرشيدة والتوجيه المصيب ، فقد كان الأداء خالياً من الشقشقة الخطابية ، والتمثيل بريئاً من البهلوانية المسرحية ، وهما البليتان اللتان باعدتا من قبل بين اللغة والطبع وبين المسرح والحياة .

فإلى المترجم الفاضل التهنئة الصادقة على جمال الترجمة وحسن الاختيار ، وللأستاذين والأستاذات : سراج منير ، وجورج أبيض ، وفاخر فاخر ، وإحسان شريف ، وأمينة رزق ، وروحية خالد ، الثناء الحق على روعة التمثيل وطبيعة الحوار .

إلى الأستاذ بن مصطفى

لم يكن ما نشرناه فى « الرسالة » الغراء عن « كعب الأحبار » تفصيلا لتأريخه ، أو استيعاباً لترجمته ، وإنما هو — كما ذكرنا — طرف صغير من أمر هذا الكاهن قبسناه من فصل طويل كسرناه فى كتابنا « حياة الحديث » — الذى لم يطبع بعد — على (الإسرائيليات فى الحديث) ، وحشدنا فيه كل ما عثرنا عليه من أدلة وحجج لاستيفاء بحثنا وتأييده .

على أنه مما يسرنا أن نقرأ كتاب (عمر بن الخطاب) الذى ألفه الأستاذان على وناجى الطنطاوى ، حتى إذا وجدنا فيه ما لم يكن فى كتابنا ، زدناه على بحثنا ، وجعلنا هذا الكتاب من مصادرنا .

هذا ، وإنى أشكر لك ما تفضلت به من لفت نظرنا إلى هذا الكتاب القيم .

(المنصورة) **محمود أبو رية**

معرض الكتاب العربى الأول لسنة ١٩٤٦ :

تعتزم وزارة المعارف إقامة معرض يطلق عليه « معرض الكتاب العربى » لمدة أسبوع يبدأ من يوم الخميس ٣٠ مايو سنة ١٩٤٦ بالسراى الصغرى بالجزيرة . والغرض من إقامة هذا المعرض هو التعريف بالمسائل الآتية :

١ — تطور حركة التأليف من فجر النهضة الفكرية الحديثة حتى الوقت الحاضر .

٢ — تطور حركة الطباعة منذ إنشاء مطبعة بولاق الأميرية

٣ — تطور الصحيفة اليومية الإخبارية والدوريات الأدبية منذ قيام الصحافة فى مصر

٤ — تطور فكرة توضيح الكتب بالرسوم والصور

٥ — تطور الكتاب الدرسى من حيث موضوعه وطبعه .

٦ — تطور حركة التأليف للأطفال والشباب

٧ — نهضة التأليف والترجمة فى عهد المغفور له الملك فؤاد

٨ — النهضة الفكرية فى عهد صاحب الجلالة الملك فاروق .

هذا ، ويسر الوزارة أن يتفضل كل أديب بالمساهمة فى إقامة هذا المعرض بما يستطيع تقديمه على سبيل الإعارة .

وقد كلفت الوزارة مندوبها الدكتور ابراهيم جمعة مدير قسم التاحف والمعارض الثقافية بالاتصال بمزتكم فى هذا الشأن رجاء التكرم بإعازتنا ما يمكن تقديمه فى موعد غايته يوم السبت ٢٧ أبريل سنة ١٩٤٦

(مراقب الثقافة العامة) (وكيل المعارف)

محمد عبد الواحد خلاف محمد شفيق غربال

« تاج المرأة » على مسرح دار الأوبرا الملكية

ما ألذ ساعة يقضيها الإنسان فى دار التمثيل يشاهد صورة حية من صور المجتمع ، ينقلها بوضعها الصحيح ، ووقائعها المحسوسة الملموسة ، ممثلون كأنهم أصحاب الصورة فى إبراز الشعور وفى أداء الأغراض التى رمى إليها المؤلف فى الابتداع ، وفى تقسيم الفصول ، وفى التفنن فى التمهيد لكل حدث يقع ، ولكل كلة تلمح إلى ما يليها ، والنكتة المضحكة وما يتبعها من لذعة مؤلمة ، وأين تقع العقدة وأين ومتى يحلها وفق ما هو مفروض لمثله الأعلى الذى تصوره فى ذهنه قبل خلق روايته .

ما أحلى تلك الساعة وما أشهاها لنفس تعلم جيداً أن التمثيل سيبقى أبد الدهر برغم مزاحمة السينما له ودفعها إياه بعنا كبها الجبارة من طريقها ، وأن بقاءه منوط بالحياة ذاتها ، والاستمتاع بها نفسها ، عن طريق المشاهدة والسمع ، بانتشار العلم بين جميع الأوساط ، وذيوع الثقافة الفنية ، والإحساس الواعى بفتنة الفن وسحره .

ما أحلاها ساعة ترى فيها نصير التمثيل أينما تلفت مقاعد دار الأوبرا ومقاصيرها وشرفاتها حافلة بأيقاظ الذهن والروح والشعور يطمئنون دعاة الأدب والفن على أن البلد بخير وعافية ، وأن نهضته صحيحة سليمة ، وأنهم يتلقفون صور الحياة ، ناطقة بالحياة ، حباً للحياة .

بل ما أحلى أن يعى جيدا ، ويدرك جيدا ، ويعمل جيدا أولئك المشرفون على إبراز التمثيل إلى عالم الواقع ، أن من أقدس واجباتهم ، وأسمى غاياتهم إظهار ثقافة الأمة على حقيقتها ، والأخذ بيد هذه الأمة لتتوقل معها مدارج الصعود ، وأن هذا ميسور لها إذا قدرت أن مذهب الفن للفن هو رسالتها ، وأن كسب المال الوفير هو وسيلة لا غاية .

لقد نعمت بهذه الساعة السعيدة فى دار الأوبرا حيث كانت فرقة التمثيل تمثل رواية « تاج المرأة » لمؤلفها دوماس العظيم ، ومترجمها الأستاذ الفاضل كامل الهنساوى .

لقد نعمت فعلا بساعة سعيدة ، كانت تتجاذبنى خلالها انفعالات شتى ، وأحاسيس متنوعة ، واضطرابات تميل بى تارة إلى كل جانب استجابة لعواصف الحياة وهى تعصف هوجاء دائما على غير قياس وبدون تدبر ، وقد نسقها فأبدع تنسيقها مؤلف عظيم موهوب فطر على انتزاع أسرار الحياة ليبسطها على المسرح ، وتارة تجذبنى جمل وألفاظ ، وإيماءات وإشارات وتنقلات ، وانخفاضات فى الصوت وارتفاعات ، ولين فى مخارج الكلمات أو شدة ، وانفعالات واضحة فى قسمات الوجوه ، واللواحظ والابتسامات أتقنها الممثلون والممثلات أجود إتقان . ولم تصدم سمعى كلة واحدة نابية ، أو جملة واحدة مخلخلة قلقة ، أو لفظة تدل على أن المترجم لم يؤد الأمانة حقها ، أو إلى ضعف فى التوفيق بين اللغتين الفرنسية والعربية ، أو التصرف والتهاون ولو قليلا فى مقاصد المؤلف ، أو التراخى فى إبراز روحه العظيمة على حقيقتها فى العظمة والجلال ، هكذا يكون الانسجام الحقيقى بين المؤلف والمترجم والممثل والمخرج ، فيمثلون روح الرواية الواحدة كل من ناحيته متساندين .

إنها لساعة تدفع بى بغير تحفظ إلى إسداء الشكر لهذه الفرقة التى أتحفتنا بتمثيل هذه الرواية فى هذا الفصل ، وكنت أود أن أطالبها المزيد من هذه الروايات الرفيعة ، لأنها على الأقل تنفع كتاب الرواية المسرحية منا فتفتح أمامهم آفاقا لم يجرؤوا بعد على ولوجها ، فضلا عن أنها تعالج مشكلات اجتماعية لا تختلف عن مشكلاتنا الاجتماعية والخلقية والعائلية فى وسطينا الراقى والوسط ، ولكنى أوفر على نفسى مطالبة هذه الفرقة التى لا تريد أن تعترف بأن لها رسالة ثقافية ، وأن عليها واجبات نحو الأمة والحكومة .

حبيب الزحلاوي

الكتب

الأوذيسة ... !

بين هوميروس ودريني خشبة

للأستاذ زكى المحاسنى

أين أنت يا عولس بعد أن دكّت العصور عهدك القديم ، وهدمت حرب الأمس قومك الحديث ، وضاع كل شىء من آثارك إلا كتاباً خلدك بين أناشيده هوميروس أبو الشعراء ؟

هلمّ عولس من أطباق ثراك إن كان معروفاً ثراكْ ، وجىء حمى العربية تلق كتابك فيها منشوراً ، وذكرك بلسانها مسطوراً .

تلك هى « الأوذيسة » تنشر فى لغة العرب اليوم أول مرة ، ولئن سبق الأستاذ دريني خشبة فأخرج للناس « قصة طروادة » ، فإنما كانت « الإلياذة » معروفة لدى العرب المحدثين منذ نظم ملحمتها الكبرى سليمان البستانى بلغة الضاد .

ولئن لم يكن للأستاذ خشبة فى « قصة طروادة » سابقة التعريب ، فقد كانت له فيها طرافة الرواية ورقة البيان ، وقد كثر فيها صليل السلاح وعراك الحروب ، فدارت حوادثها فى البطولة والحماسة . أما « الأوذيسة » ، فأكسبت الأستاذ خشبة سابقة النقل إلى العربية منذ نظمها « هومير » باليونانية العتيقة ، وكانت سيرة الأخطار فى البحار ، وغرائب الحدثان فى الحب والوفاء .

وقد ذكر المؤرخون أن العرب فى العصر العباسى عرفوا « الإلياذة » وترجمها المرحوم « الرهاوى » أحد المقربين من الخليفة المهدى . أما « الأوذيسة » ، فلم أجد أحداً من المؤرخين من أهل الأدب القديم قد ذكر أن العرب ترجموها أو عرفوها ، فأكبر عندى ذلك أن أجدها اليوم بالعربية فى جملة آثار النهضة الثقافية التى تهب فى هذه الآونة على وادى النيل .

لكن الأستاذ خشبة لم يلزم ترجمتها فى النص ، ولا رعى الأناشيد فى الشعر ، وإنما ابتكر طريقة أخذ نفسه بها فى سرد الأدب اليونانى القديم منذ أخرج كتابه الأول « أساطير الحب والجمال عند الإغريق » ، وهى طريقة تنزع إلى الفن ومرانته أكثر مما تلم بالتاريخ وجموده . إن حوادث « الأوذيسة » لنى وعى راويها الأديب الذى يجىء بها على أنماط قصصية آخذ بعضها بهامات بعض ، وهو بهذه الطريقة ذو سابقة أيضاً فى أخبار الأساطير .

يتجهم لهذا الفن القصصى ناس يؤثرون عليه ترجمته بالنص ، وقد يعسرون فيطلبون أن تكون الأوذيسة شعراً فى العربية على نمط ما فعل البستانى بالإلياذة ، لأن ذلك أبقى للأثر وأقرب تقليداً لأصله ، وإن مذهب هؤلاء النقاد فى نثر كان شعراً هو مذهبهم فى ماء كان خمراً .

لكن أمثال أولئك الناقدين إذا ألموا بهذه الأوذيسة وتركوا مذهبهم قليلا ، أنساهم أسلوب الأستاذ خشبة تلك الشروط ، فراحوا مغمورين بسحر من القول وبراعة فى الوصف ، فجاسوا بأنظارهم خلال الحدثان منذ انتهت الحرب الطروادية ، حتى عاد عولس إلى بلاده ، فإذا فرغوا من كل ذلك حصلوا على السيرة الثانية التى تركها هوميروس ميراثاً للآداب العالمية .

ضاع عولس فى اليم وتفرق شمل صحابه ، وأروع ما على اليم من أخطار تلك الجزيرة التى كان يملك عليها بوليفيم زعيم السيكلوب الإنسان الجبار . أما وصف بوليفيم ، فنسج أسطورة مغرقة فى الخيال . كان على هيئة إنسان ضخم كجذع شجرة السنديان عريض الألواح ، وكان طوالا جسيما ، يداه كغصنين ، ورأسه كصخرة كبيرة ، إنه ليستطيع أن يضع فى كفة إنساناً ، وأن يطبق أصابعه عليه . أما جبهته ، فصفحة مبسوطة فى بُهرتها عين واحدة كفم البئر .

ومشى مهرولا ، فاهتزت الجزيرة التى أرسى عليها مركب عولس وصحابه ، وأحس عولس ورفاقه أن الكهف الذى أووا إليه يكاد يكون لهم مرقد المنية ، فها هو ذا بوليفيم مقبل نحوهم بقطيعه يهش عليه بشجرة لها فرعان ، كل فرع منهما كعمود

المركب الكبير . أما أغنامه فكالثيران مرسلة الشعور إلى الأرض لحومها غذاؤه ولبنها شرابه .

ودخل الكهف البوليفيم فوجد ضيوفه ، فلم يحسن لقاءهم ؛ وإنما أخذ باثنين منهم فألقاهما في الفضاء حتى نطحا برأسيهما سقف الكهف ثم انحطا على الأرض هشيمين ، فأكلهما شيئاً على النار بغير سفّود ، وجلس يتلمّظ فسدّ باب الكهف بجسمه وأخذ يغط في نوم عميق .

فربع عولس وصحبه وعرفوا موتهم عند انتباهته ، فاحتالوا له في يومهم الثاني . فتقدم إليه عولس بكيده ودهائه وسكب في فمه زق خمر معتّقة من دنانِ القسّ فوبوس إله آزماروس . فكرعها الوحش وسكر بنشوتين ، ثم نام . فهب عولس وجمعه إلى النار فأوقدوها وأشعلوا رأس ذلك الغصن الذي يهش به الوحش على غنمه ، وفقأوا عينه كما يطفىء الحداد عمود الحديد المشتعل بحوض من الماء .

وكان عولس حين تقدم إلى الوحش بخمره فسأله عن اسمه أجابه : إسمي أوتيس . ومعناها (لا أحد) . فلما أحس الجبار بهول النار صرخ صرخة دوّت في الجزيرة حتى مادت . فربع الجبابرة وجاؤوا ركضاً يسألونه الخبر ، وكان الظلام مطبقاً على الكهف وما حوله . فسألوه من آلمك أو قتلك . فقال وهو يجود بالنفس الأخير : لا أحد .

فانصرفوا وهم به هازئون . . .

***

تلك حوادث عولس وهي كثيرة منذ انصرف الآشيون إلى أمصارهم بعد أن فتحوا طروادة وخربوها . عاد ملكهم آغاممنون جريحاً إلى بلاده متحاملا على نفسه ، وارتمى البطل مينيلاس على شواطىء مصر ، وغرق آجاكس عند الصخور التي تتلاطم عليها أمواج البحر . أما عولس فقد كتب له أوفى نصيب من العذاب فظل السنين العديدة في جزيرة كاليبسو أسيرا عند الجن ، أو مطروحا على ثبج البحر بمركبه القلق من جزيرة إلى جزيرة ، وكان ابنه تلماك يقطع الآفاق بالبحث عنه راكبا على عجلة مجنحة أعطاه إياها نسطور الساحر .

يقول « كروازي » في كتابه عن الأدب اليوناني القديم :

(لئن كانت الإلياذة قصة السير إلى الغزوة ، أو الغزوة ذاتها ، فإن الأوذيسة إذن هي قصة العودة) .

وعلى مثال كروازي يحاول من يدرس الأوذيسة أن يؤرخها وينقدها ، ويبين وجوه الصحة والأصالة فيها ، ووجوه الوضع والاختلاق ، وكل ذلك لم يتعرض إليه الأستاذ دريني خشبه لأنه أسلف الكلام عليه مجملا في مقدمة الإلياذة ، ولو فصل الكلام فيهما بعض الفصل لجعل لكل منهما مقدمة خاصة لكان ذلك به أجدى وبفنه أوفى .

وكأن القادر قد سيرت قلم الأستاذ خشبه ، فقد أخرج الإلياذة والحرب في دنيانا قائمة . وكانت الإلياذة تاريخ حرب مصبوغة بالدماء ، يشتجر فيها الحديد وتستعر النار . فلما وضعت الحرب أوزارها وسكنت أصوات المدافع أخرج أمس للناس قصة الأوذيسة وكانت الأوذيسة سيرة الصداقة والمحبة ، والوفاء والألفة ، بعد الشقاء والعذاب .

زكي المحاسني